رحلة الخياري الى سورية في القرن الحادي عشر الهجري

صفحات من مخطوط لم ينشر

للاستاذ عبد القادر الريحاوي

المقدمة

لكتب الرحلات ميزة خاصة على سائر مصادر المعرفة الأخرى كالجغرافيا والأدب والتاريخ لأنها تمدنا بمعلومات ذات شأن قد لانجدها في غيرها من المؤلفات . فالرحالة يصرف همه في وصف الطريق ومراحله والبلدان وعمائرها وآثارها ويورد الملاحظات الهامة عما يستلفت انتباهه في كل بلد من طرائف وخصائص عن جغرافيته وأقليمه وسكانه وحياتهم الاجتماعية وطرق معيشتهم ، وعن الحياة الاقتصادية والعلمية وغير ذلك من الملاحظات . وكلنا يقدر ما قدمته رحلتا ابن جبير وابن بطوطة من معلومات وأخبار قيمة للمؤرخين وعلماء الآثار وغيرهم ، عن أحوال البلدان التي زاراها الأول في أواخر القرن السادس الهجري أي في عصر صلاح الدين والثاني في النصف الأول من القرن الثامن ، أي في العصر المملوكي .

وأهمية رحلة الخياري تأتي من كونها كتبت في العهد العثماني ، العصر الذي انحطت فيه الثقافة والحياة العلمية والفكرية ، وقل فيه المؤرخون المجيدون ، مما جعل معلوماتنا عن ذلك العصر فقيرة ضحلة .

وبالرغم من نشر عدد من كتب الرحلات التي تتحدث عن سورية في هـذا العصر فاننا مازلنا بحاجة إلى المزيد منها . وحين نعثر على مخطوط ما ، نتلقفه بنهم ونبحث في صفحاته عما يملأ الفراغ ويكمل النقص .

لقد أحصى جرجي زيدان (١) عدداً من كتب الرحلات ، وذكر بينها رحلة الخياري ، وعين من نسخها واحدة في برلين وأخرى في غوتا (بلدة بألمانيا الشرقية) وقال بأن كتاب الرحلة طبع في (لايبزيغ) بألمانيا عام ١٨٥٠ (٢) .

وحين كنت في القاهرة عام ١٩٦٠ دلني الدكتور صلاح الدين المنجد مدير معهد المخطوطات في الجامعة العربية على هـذا المخطوط ، فرحت أفتش عنه في مكتبـة دار الكتب المصرية ، وتصفحته فإذا به كتاب ضخم يقع في (٥٥٦) صفحة من الحجم المتوسط ، وكان محفوظاً تحت رقم « ٥٤٥ جغرافيا » وعنوانه « تحفة الأدباء وسلوة الغرباء » فاستحصلت على صـورة كاملة للمخطوط وانصرفت لمطالعته ، فاتضح لي بأن كتاب الرحلة هذا ليس خاصاً بسورية وحدهـا كما كنت أظن . بل أن مايخصها من الكتاب لايتجاوز المائة والعشر صفحات . فآثرت عندها الاكتفاء بنشرها وحدها .

وكانت نسخة دار الكتب هذه التي اعتمدت عليهـا مخطوطة كاملة ، بل أحسن النسخ الموجودة في مكتبات برلين وغوتا واستامبول وروما ، وأقدمها جميعاً لأنهـا كتبت في حياة المؤلف بخط أحد معاصريه ويعرف بمحمد الشعراوي المدني ، وقد انتهى من كتابتها في الثالث من ربيع الأول من شهور سنة اثنتين وثمانين والف ، كما جاء في آخر المخطوطة . وفي هامش الصفحة الأخيرة تعليق بخط الخياري المؤلف نفسه يفيد مقابلتها على الأصل والاعتراف بصحتها ويلاحظ في هذه الصفحة الأخيرة وجود أبيات من الشعر في مدح الرحلة كتبها الشيخ عبد الغني النابلسي ، أحد رجالات دمشق المشهورين ومن أصدقاء المؤلف .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ، الجزء الثالث ص ٣٢٢ ، مطبعة الهلال ، سنة ١٩١٣ .

(٢) ذكر محمد الفاسي في مقـاله الذي نشره عن رحلة الخياري في مجلة معهد المخطوطات في الجـامعة العربية المجلد السادس . ص ١٦١ بأن ما نشر في لايبزيغ لايتجاوز ثلاث صفحات من الرحلة مع ترجمتها الى الألمانية والتعليق عليها .

ويلاحظ أيضاً بأن هذه النسخة كتبت بخط جيد يستعمل كاتبها الفواصل بين الجمل ، ويضع أبيات الشعر بين فاصلتين للدلالة عليها ، وهناك على هامش بعض الصفحات تعليقات وعناوين وأسماء أعلام أو تصحيحات ، لايعلم واضعها .

أما مؤلف الكتاب فهو الشيخ ابراهيم بن عبد الرحمن بن علي بن موسى بن خضر الخياري (١) من أهالي المدينة المنورة . ولد عام ١٠٣٧ للهجرة وتوفي سنة ١٠٨٣ . وكان فقيهاً ، محدثاً ، مدرساً في المدينة . ثم حدث أن أخذت منه وظيفة التدريس فعزم على السفر إلى القسطنطينية للشكوى إلى السلطان ، فكان ذلك هو الباعث الأول على رحلته ، لكنه يشير في مقدمته بأن من أغراض رحلته أيضاً تحقيق حلمه بزيارة دمشق وبيت المقدس .

خرج الخياري من المدينة مبتدئاً رحلته مع قافلة الحج العائدة الى دمشق في الثاني والعشرين من المحرم من عام ألف وثمانين للهجرة (١٦٦٩ م) فوصلها في الخامس والعشرين من صفر ، أي في مدة شهر وثلاثة أيام . فأقام في دمشق ، ثمانية عشر يوماً ثم تابع طريقه الى القسطنطينية . وعاد بعدها الى دمشق فأقام ثلاثة أسابيع ثم غادرها الى بيت المقدس ، فأقام فيها أياماً وخرج الى القاهرة فكانت مدة إقامته فيها أربعين يوماً . تابع بعدها طريقه الى المدينة فوصلها في الثامن والعشرين من ذي القعدة ، عام ١٠٨٣ .

وهكذا استغرقت الرحلة حوالي العشرين شهراً(٢) . ثم كتب الخياري رحلته معتمداً على مذكرات كان يسجلها في حينها ، وسماها « تحفة الأدباء وسلوة الغرباء » ، كتبها بأسلوب أدبي يغلب عليه استعمال السجع والاستشهاد بالأمثال والأشعار ، مع تكرار المعاني وامراف في المديح وتنميق للعبارات . وكان لا يتورع عن الغزل المذكر في المناسبات ، ويستعمل كلمات تركية أحياناً كانت شائعة في العهد العثماني مثل كلمة (كوبري) التي تعني الجسر ، و (بوغاز) وتعني المضيق . وأحياناً يستعمل بعض الكلمات العامية .

---

(١) أنظر ترجمته في « خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر » المحبي ، ٢٥/١ .

(٢) انظر مقالة محمد الفاسي التي تقدم ذكرها في هامش الصفحة السابقة من أجل معرفة مراحل الرحلة والبلدان التي زارها الخياري .

فالكتاب في الواقع يمثل عصر الانحطاط الفكري والأدبي والعلمي . ومن الناحية اللغوية نلاحظ أن المؤلف يقصر المد في كتابة الكلمات فيقول : السما والعلما والفضلا . ويستعمل كذلك الياء بدلاً من الهمزة فيقول : فضايل وأيمة عوضاً عن فضائل وأئمة .

واتضح لي بعد دراسة الصفحات الخاصة بسورية من المخطوط أن ما كتبه الخياري في رحلته لم يكن كله معلومات مفيدة كالتي نتوقعها عادة في كتب الرحلات . وإنما حشا رحلته بكثير من القصائد التي أنشدها في المناسبات أو التي أنشده إياها من اجتمع بهم من العلماء ، وكلها من الشعر الركيك الذي لا يهمنا أمره ، وبين ثنايا أخبار الرحلة كان الخياري يسرف في تدبيج العبارات الأدبية وتنميقها ابتغاء التأدب وصناعة السجع ، مما جعلني أميل الى عدم نشر النص الحرفي للمخطوط وأكتفي باستخراج ما فيه من معلومات مفيدة عن أحوال البلدان ، فاستبعدت القصائد الشعرية التي تحتل جانباً هاماً من صفحات المخطوط ، وكذلك حذفت الجمل التي لا معنى لها ، وأثبت أحياناً النص الحرفي حين وجدته جديراً بالنشر .

وهكذا أكون في هذا المقال قد قدمت للقراء كل ما يهمهم معرفته والاطلاع عليه من المعلومات في هذا المخطوط ، هذه المعلومات التي يمكن أن نحصرها في المواضيع الرئيسية التالية :

١ – وصف الطريق ومنازله . ٢ – معالم المدن ومبانيها القديمة وأحوال سكانها .

٣ – تراجم مشاهير الرجال .

الرحلة

وصل الخياري الأراضي السورية مع قافلة الحج العائدة الى الشام . وبعد أن اجتازت القافلة بلدتي المفرق ثم الرمثة الأردنيتين القريبتين من الحدود حطت الرحال في قرية المزيريب[1] كأول منزل تنزله في الأراضي السورية . ويلاحظ بأن القافلة لم تمر من مدينة درعا وإنما كان طريق القوافل يمر الى الغرب منها .

---

(١) احدى قرى حوران تقع الى الشمال الغربي من درعا وتبعد عنها ١٦ كيلو متراً . وتشتهر اليوم ببحيرتها الجميلة وقلعتها الأثرية اللتين أشار اليهما المؤلف .

ويصف لنا الخياري مشاهداته في هذا المنزل في الورقة ٢٦ من المخطوط فيقول : « إذ هو أقرب منزل تتضح بثغره ثغور الشام » ، ثم يتحدث عن بحيرة المزيريب وأسماكها ، ويصف قلعتها فيقول : « وبهذا المنزل قلعة عامرة البناء مشتملة على (أوضات) متعددة علوية وسفلية في وسطها صورة مسجد معد للصلاة ، وفيها طائفة من العساكر مقيمون بها لا يظعنون عنها . وأخبر بعض من بها من العساكر أنها من عمل مولانا السلطان سليم » .

وأقامت القافلة في المزيريب بقية يوم الاثنين الثالث والعشرين من صفر من عام ألف وثمانين ، ثم غادرتها بعد العِشاء وطلوع القمر . وسارت في طريق به آثار تدل على زرع من التين والعنب . ومرت بمنزل يسمى الكُتَيْبة (١) « به ماء ببركة مربعة يقال إن ماءها ينبع بها نبعاً . وقبله مررنا (بكبري) (٢) طويل الانحاء مشتمل على طاقات معقودة لمرور الماء ونظيره في الوضع (كبري) مررنا عليه قبل ذلك بالمزيريب » . وكان وصول القافلة الى الكتيبة وقت الزوال فلم تنزل بها ، بل تابعت طريقها الى الصنمين : « وأتينا الى منزل أقرب منه يسمى الصنمين به أبنية قائمة فيها الداثر والعامر بالحجر المنحوت وبه صوامع مرتفعة مربعة الوضع يقال إنه كان يُضرب بها نواقيسهم ... وبهذا المحل مسجد عجيب الوضع بني كله بالحجارة المتلاحقة حتى سقفه من الحجر وبابه كذلك . وبه منبر قائم وحوله أبنية كثيرة وبالقرب منه مجتمع ماء عليه آثار الطحلب لم يكن بالعذب السائغ ولا بالمهجور المتروك » (٣) .

---

(١) موقع فيه تل أثري وقرية صغيرة وبركة ماء . وتقع الى الجنوب من الصنمين على الطريق بين دمشق ودرعا .

(٢) كلمة تركية معناها الجسر ، ولقد فتشنا المنطقة عن الجسرين المذكورين وآزرنا في ذلك الزميل السيد سليمان المقداد فلم نعثر على جسرين ينطبق عليهما ما أشار اليه الرحالة .

فالجسر الأول الذي هو قبل الكتيبة ربما كان الجسر المنهدم الواقع عند قرية الدلي على نهر العرام ولكنه يتألف من ثلاث قناطر فقط . أما الجسر الثاني القريب من المزيريب فربما كان الجسر القائم على وادي الهرير عند تل الأشعري الى الشمال من المزيريب ويتألف من تسع قناطر حجرية وبضعة فتحات صغيرة . لكننا نستبعد أن تمر عليه القافلة لأنها غير مضطرة الى ذلك لوقوعه غربي طريق القوافل .

(٣) قرية من قرى حوران تبعد عن دمشق مسافة أربع وأربعين كيلو مترا ، مشهورة بآثارها التي ترجع الى العهد الروماني والمبنية بالحجارة السوداء البازلتية ، من آثارها المعبد الروماني والى جانبه الجامع الذي أشار اليه الخياري ولكنه جدد منذ سنوات قليلة . وكلاهما واقع على ضفة بركة قديمة محفورة في الصخر تتجمع فيها المياه لسقي الحيوانات . أما الصوامع التي أشار اليها الرحالة وهي أبراج مربعة فلم يعد لها وجود اليوم . (انظر صورة المعبد والجامع مع البركة في هذا المقال) .

وتتابع القافلة سيرها تاركة الصنمين بعد العصر فتصل الى خان ذي النون عند منتصف الليل : « فمررنا بمحل يقال له ذو النون(١) به كثير من أهل الشام موجودون قد خرجوا لملاقاة من لهم من الحاجين ينادونهم بأعلى أصواتهم ، يا فلان بن فلان ويزيدون من النسب مايزيل الابهام ، لتمييز المدعو غاية التمييز ، فيجيب إن كان موجوداً . ولم نزل كذلك دائبين في المسير ، نمر على جداول مياه قليلة حتى وصلنا لمحل يقال له الكسوة (٢) به جمع أكثر من الأولين يصنعون كصنيع السالفين ، وبها كثير من الشموع الموقودة ... فلم نزل نسير فمررنا بمحل يقال له القبة (٣) به قبة حسنة الأوضاع عجيبة الابداع حتى انتهينا الى محل يقال له باب الله (٤) فرأيناه مفتوحاً ... فبعد الدخول من سورها (سور دمشق) والنظر الى ولدانها وحورها فإذا مرأى يدهش الأبصار ويستوقف الأنظار ... » . ثم يقول : ورأينا أن الشام أعدل البلاد وأنزه مَرَاد لبلوغ المُراد ، قد جمعت هي وأهلها حسن العرب وظرافة الروم(٥) ، وكانت برزخاً بين الفريقين يحله من يقصدهما ويروم ، وبالجملة فأهلها ينسون الغريب أهله ، ويخصبون

---

(١) لا يزال هذا الخان قائماً يبعد عن دمشق مسافة ٢٤ كيلو متراً ، يقع على الطريق الذاهب الى درعا والأردن ، وقد بني في عام ٧٧٨ للهجرة . وهو على شكل مربع طول ضلعه ستون متراً مزود بأبراج مستديرة في زواياه الأربع . وداخله صحن مبلط تحيط به أجنحة مسقوفة بالاقباء . وتمر بالخان قناة متفرعة عن النهر الأعوج ، وقد عمدت مؤخراً المديرية العامة للآثار والمتاحف لتسجيله في عداد المباني التاريخية .

(٢) الكسوة قرية جنوبي دمشق تبعد عنها ١٨ كيلو متراً كثيرة المياه والبساتين . يمر منها النهر الأعوج .

(٣) اشتهرت هذه القبة في العهد المملوكي بقبة يلبغا وكان ينزل عندها الأمراء الخارجون من دمشق أو القادمون اليها ، بناها نائب دمشق يلبغا اليحياوي (٧٤٦ — ٧٤٨ هـ) وكانت عند قرية القدم ، ويوجد اليوم بالقرب من زاوية العسالي قبة متهدمة ولكنها تبدو عثمانية العصر لأنها لا تشبه قبة يلبغا المملوكية كما لاينطبق عليها الوصف الذي قدمه الرحالة .

(٤) وهي اليوم محلة في آخر الميدان جنوبي دمشق تعرف ببوابة الله . ولكن الباب والسور الذين أشار اليهما الخياري في هذه المحلة لا وجود لهما اليوم ، ولعله كان لهذا الحي الواقع خارج السور سور خاص وباب كما كان لأكثر أحياء دمشق في العصور القديمة والتي ما يزال أبواب بعضها باقياً الى اليوم .

(٥) المقصود بالروم هنا الأتراك سكان آسيا الصغرى (بلاد الروم كما يسميها المؤرخون العرب) .

بلطافة أخلاقهم محلّه ، فلقد قابلنا أجلاؤها وأعيانها بالتكريم والتعظيم ، وعاملونا لما طبعوا عليه من شريف الخيم ، معاملة الصديق الحميم ، فشكر الله لهم ذلك الإحسان وأبقاهم ما اختلف الملوان (١) . فممن تشرفنا بمرآه من أعيانها ... » :

رجالات دمشق الذين قابلهم الخياري الرحالة

ويسترسل هنا الرحالة في الحديث عن مقابلاته لأعيان دمشق وما دار بينه وبينهم من مجاملات وما قيل من قصائد وأشعار . فكان ممن اجتمع بهم :

١ ــ السيد محمد الحسيني (٢) نقيب الأشراف الذي زاره مع ابنه عبد الرحمن للسلام عليه بالمحل الذي نزله ، وأنشده بيتين من الشعر ، رد عليه الخياري بقصيدة أنشده إياها في مجلس غص بالفضلاء والأعيان . والتمس منه النقيب حسب العادة المتبعة بين علماء ذلك العصر منح حفيده السيد سعدي إجازة بمروياته في الحديث :

« ثم شرفني بالحضور واحضار فرعه المشار إليه فأسمعتهما من لفظي الحديث المسلسل بالأولوية بحسب ماثبت من روايتي له . وأجزته بسائر مروياتي ، حسبما جرت به عادة المحدثين ، ثم كتبت لولده بذلك إجازة وسطرت بها بعض الأسانيد حسبما اقتضاه ضيق الوقت ... » .

٢ ــ أحمد أفندي المفتي(٣) بالشام الشريف الذي أسمعه بعض مباحث له بالتفسير .

٣ ــ اسماعيل المحاسني(٤) خطيب الجامع الأموي .

---

(١) الليل والنهار .

(٢) محمد بن كمال الدين بن حمزة أحد علماء دمشق المشهورين . وكان شاعراً . توفي سنة ١٠٨٥ هـ . (انظر ترجمته في « خلاصة الأثر في تراجم القرن الحادي عشر ــ المحبي ــ جزء ٤ ص ١٢٤) .

(٣) ويعرف بالمهمندار . وهو عالم جليل كان مفتياً في دمشق في أيام الخياري وتوفي سنة ١١٠٥ هـ . (سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ــ المرادي ــ ١/١٨٧) .

(٤) انظر ترجمته في سلك الدرر ١/٢٥٠ . وقد نشرت له مجلة معهد المخطوطات في المجلد السادس مذكرات تاريخية هامة عرفت بكناش المحاسني . (مقالة الدكتور المنجد) .

٤ ـ الشيخ ابراهيم الدمشقي الحنفي الشهير بالفتال (١) . حضر الخياري درسه بالجامع الأموي وأعجب به .

٥ ـ قاضي الشام احمد البكري (٢) .

٦ ـ الشيخ عبد القادر الصفوري (٣) زاره الخياري في منزله فأجازه الصفوري بجميع مروياته.

٧ ـ الأمير منجك (٤) باشا بن الأمير محمد المنتهي نسبه إلى المماليك الجراكسة . زاره في داره ورد له الأمير الزيارة وتبادلا المديح بالقصائد وتوثقت بينهما العلائق .

٨ ـ الشيخ رمضان العطيفي (٥) وكانت له بالخياري معرفة سابقة ومراسلات .

٩ ـ جمال الدين محمد بن الدرا (٦) وهو عالم وشاعر يكيل له الخياري المديح وآيات التعظيم وقد تبادل وإياه نظم القصائد . وذهب معه لبعض منتزهات دمشق . وأملى عليه العالم المذكور كثيراً من شعر مهيار الديلمي (٧) وأخبره بأنه شرح سقط الزند لأبي العلاء المعري وقدمه لشريف مكة زيد بن محسن .

١٠ ـ العلامة الشيخ عبد الغني النابلسي (٨) . جاء للسلام عليه ، فاعتبر الخياري ذلك تكريماً له من الشيخ لأن النابلسي كان معتزلاً في بيته يمضي عليه العام دون أن يخرج للقاء

---

(١) أحد علماء دمشق وأساتذتها المشهورين وكان شاعراً . توفي سنة ١١٠٥ هـ (سلك الدرر ـ المرادي ١٨٧/١) .

(٢) انظر ترجمته في سلك الدرر ١٤٩/١ .

(٣) عالم ومدرس . توفي عام ١٠٨١ (خلاصة الأثر ـ المحبي ـ ٤٦٩/٢) .

(٤) علم من أعلام دمشق المشهورين ، وشاعر كبير . توفي سنة ١٠٨٠ هـ (خلاصة الأثر ، ٤٠٢/٤) .

(٥) وهو من كبار العلماء ، فقيه ، نحوي . توفي سنة ١٠٩٥ (خلاصه الأثر ، ١٦٨/٢) .

(٦) لم نعثر له على ترجمة في وفيات القرن الحادي عشر للمحبي أو القرن الثاني عشر للمرادي .

(٧) شاعر كبير من شعراء العصر العباسي . وهو من أصل فارسي توفي سنة ٤٢٨ هـ (انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٤١/٤ ـ طبعة مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨) .

(٨) من أعلام دمشق المشهورين وأحد أقطاب الصوفية ، مارس التدريس والتأليف ، وقام برحلات الى بلدان عديدة وألف الكتب المشهورة ، ونظم الشعر . ولد سنة ١٠٥٠ وتوفي سنة ١١٤٣ هـ وقبره في تربة داخل الجامع المنسوب إليه في محلة الشركسية بدمشق . بنيت عام ١٠٢٦ (سلك الدرر ٣٠/٣) .

أحد ، وكان منصرفاً إلى التأليف والكتابة . ويدون الخياري في رحلته ما أنشده اياه النابلسي من الشعر ، وما رد به عليه .

١١ ـ القاضي حسين العدوي [١] الشافعي الصالحي .

١٢ ـ خليل بن الظريف الحلبي [٢] تبادلا الزيارة مراراً في منزلها بدمشق ، وتقارضا الشعر ، وتلقى الخياري منه هدية وهو في المدينة كانت « حلالية [٣] بيضاء من أنفس مايصنع بالشام »

١٣ ـ الشيخ زين الدين بن أحمد البصروي [٤] . كانت بينه وبين الخياري مراسلات وهو في المدينة ، ويشير هنا الخياري إلى أن الرسائل كانت تصله مع قافلة الحج سنويا فيعيد جوابها مع الحجاج العائدين . ويذكر أن البصروي هذا بعث إليه وهو في المدينة علبة مملوءة بقلب الفستق وكتب عليها أبياتاً من الشعر . فأهدى له الخياري تمراً مدنيـاً وكتب الجواب أبياتاً من شعره أيضاً .

١٤ ـ الشيخ سليمان [٥] وكان جاراً له في محل إقامته بدمشق (في محلة قريبة من باب جيرون) ومن العلماء والسادة ، تعرف على أخويه خلال زيارته لقبر الشيخ رسلان .

الاماكن التي زارها الخياري في دمشق

في اليوم الرابع لوصوله إلى دمشق ذهب الخياري لزيارة قبر الشيخ رسلان [٦] . ثم صعد

---

(١) كان قاضي الشافعية بمحكمة الميدان والمحكمة الكبرى . وكان شاعراً . توفي سنة ١٠٧٩ ﻫ (خلاصة الأثر ٢/١١٦).

(٢) لم نجد له ترجمة عند المحبي وكذلك عند المرادي .

(٣) لم نعثر في قواميس اللغة على معنى لهذه الـكلمة ونرجح بأنها محورة من حلة وهي الثوب .

(٤) عالم أديب . صار إماماً للوزير الأعظم مصطفى باشـا كوبرلي . ورافقه في فتوحاته ، وحضر معه فتح بلغراد ، ومات في الطريق فدفن بينها وبين استانبول عام ١١٠٢ (سلك الدرر ١/١٢٢) .

(٥) لم نعثر له على ترجمة لعدم ذكر اسمه الكامل من قبل المؤلف .

(٦) قبره في المقبرة الواقعة خارج السور عند باب توما محتفى به ويزار وعليه قبة قديمة والى جانبه جامع . وكان الشيخ رسلان معاصراً لنور الدين بن زنكي معتبراً من الأوليـاء ، وأصله من قلعة جعبر . توفي سنة ٥٤١ ﻫ . انظر الكتاب الذي نشره عنه مؤخراً الأستاذ عزة حصرية . دمشق ١٩٦٥ .

الى محلة الصالحية لزيارة قبر الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي (١) ، وهنا يصف لنا تربة ابن عربي فيقول : « فبادرنا للنزول لزيارته ، فإن قبره ينزل إليه بدرجات لطيفة الشكل ... هذا وقد اعتنى بتربته بصالحية دمشق سلاطين بني عثمان نصرهم الله على توالي الزمان ، وبنى عليه السلطان سليم خان المدرسة العظيمة ورتب له الأوقاف ...

ويتعرض الخياري إلى بحث مكانة ابن عربي وعلمه وفلسفته واختلاف الآراء في الحكم عليه « فكفره بعضهم لقصور افهامهم عن إدراك مقاصد أقواله وأفعاله » .

ويتحدث الخياري عن الصالحية ويصف مكاناً فيها يعرف بالباسطية فيقول : « فإن الصالحية المذكورة جمعت محاسن دمشق . فيها قصور شامخات ومجالس عاليات . وشهرتها تغني عن أحوالها . ولعل أن يكون إن شاء الله بنا إليها عودة . والمحل النازلين به المسمى الباسطية (٢) وهو من قديم عماراتها ونظيم جواهرها ، مشتمل على ايوان جامع للمحاسن ، وعلى بحرة ماء تذكر بسلسبيل الجنان فلذلك ماؤها غير آسن . مظللة معممة بعذبات الدوالي مشتملة على النسيم العليل الذي فيه الدوالي (الدواءلي) ... وكان الداعي للحصول بها بعض ظرفاء الأحباب ولطفاء الأصحاب فانتظمنا فيها كعقد الثريا . »

وخرج ثانية إلى الصالحية في الأسبوع الثاني من إقامته . وقصد زيارة العلامة الشيخ محمد بلبان (٣) وذهب إلى داره فلم يره فذهب إلى مدرسته واستمع إلى تلاميذه يقرؤون دروساً

---

(١) ولد في الأندلس بمدينة مرسية عام ٥٦٠ للهجرة وتوفي في دمشق عام ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م . وكانت له فلسفة ، كفره بعضهم ورفعه آخرون الى مرتبة الأولياء . له مؤلفات في التصوف ، وقد أمر السلطان سليم عندما فتح دمشق عام ٩٢٢ هـ ببناء تربة على قبره ومدرسة الى جانبها هي الجامع المشهور اليوم باسم الشيخ محي الدين . وينزل الى التربة بدرج ، فيشاهد فيها ضريحه والى جانبه ضريح الأمير عبد القادر الجزائري ، وقد زينت جدران التربة في الداخل بألواح القيشاني الجميلة .

(٢) يقصد بها خانقاه الباسطية وكانت عند الجسر الأبيض محاطة بالبساتين بناها ناظر الجيوش الاسلامية القاضي زين الدين عبد الباسط عام ٨٣٦ هـ . وقد زالت مع البساتين وتحولت المنطقة الى أحياء حديثة .

(٣) عالم محدث ، كان يدرس في المدرسة العمرية وهي ماتزال معروفة في الصالحية . توفي سنة ١٠٨٣ هـ (خلاصة الأثر ٣/٤٠١) .

متعددة ، وحصل منه على اجازة في رواية الحديث . وتنزه الخياري بعدها في بعض بساتين الصالحية وعاد إلى دمشق .

ثم وصف خروجه في أحد الأيام إلى الربوة فقال : « فلقد وافيتها متنزهاً في رياضهـا وارداً سلسبيل أنهارها السبعة ... ذهبت إليها مع بعض الأحباب فمررنا قبلها في طريقها بالمرجة (١) المشهورة الصفات فوجدناها بقعة جللها الله بسندس الجنة الأخضر ... بها قصر الأمير منجك (٢) وناهيك به من قصر ... وفي مقابله قصر الباشا محمد بن الفاشف التذكرجي (٣) بالشام سابقاً .. ومررنا أيضاً بالنيربين وبالجنك والدف والميطور (٤) . وهي أسماء لأماكن معينات ... ثم مررنا بعد المرور بها برياض حسنة المغاني وقبلها بمحل به مقبرة يقال أن بها جماعة من البرامكة (٥) نزلوا الشام ثم دفنوا هناك . ومررنا بعد مفارقة المرجة على محل أنشأه الجناب العالي كيوان (٦)

---

(١) كانت الأراضي المحيطة بنهر بردى الممتدة غربي سور دمشق تعرف بالمرجة أو المرج الأخضر حيث توجد اليوم التكية السليمانية ومدينة المعرض .

(٢) وهو الأمير محمد والد الشاعر الذي تقدم ذكره . وقد بنى القصر المذكور عام ١٠١١ هـ في الوادي الأخضر . ونرجح أن يكون موقعه غربي التكية السليمانية والمتحف الوطني .

(٣) كان من كبار أغنياء دمشق في زمنه قال عنه المحبي في خلاصة الأثر بأنه كان يشغل وظيفة كاتب الجند وصار من المقربين الى رجال الحكومة في دمشق واستانبول . توفي سنة ١٠٧٤ للهجرة (خلاصة الأثر ٤/٢١٤) .

(٤) النيربان ضاحية من ضواحي دمشق الغربية اشتهرت في العهود الماضية ولم يعد يعرف لها مكان اليوم ، وهي محلتان النيرب الأعلى والنيرب الأسفل . ويمكن تحديد موقعها حول ساحة الأمويين شرقي الربوة . أما الميطور فضاحية أخرى تقع شمالي دمشق وتمتد جنوبي المدرسة الركنية اشتهرت بمتنزهاتهـا وبساتينها وبنيت فيها مدارس وترب في العهد الأيوبي بقي منها اليوم التربة الحافظية وتربة المدرسة البدرية والمدرسة الشبلية .

(٥) لم يذكر أحد من المؤرخين القدامى هذه المقبرة . ومحلهـا اليوم ضاحية البرامكة الواقعة الى الجنوب من الجامعة السورية يمر منها نهر القنوات .

(٦) رجل من أغوات الجند في القرن الحادي عشر يدعى كيوان بن عبد الله وكان ظالماً غشوماً استولى على أكثر بساتين الربوة والمزة وضمهـا إلى ملكه ، والمحلة التي يصفها الخياري ضاحية مشهورة غربي دمشق بينها وبين الربوة يمر منهـا نهرا بردى وبانياس . قتل كيوين هذا في عام ١٠٢٣ للهجرة (خلاصة الأثر ٤/٢١٤) .

به طواحين يديرها الماء . فأحطنا به خُبراً وانتهينا في بستانه ذلك الى إيوان لطيف منقور في الجبل . . . ثم صعدنا منه الى قصر شامخ . . . ثم سرنا على ظهور الجياد حتى وافينا الربوة فحللنا بستاناً من بساتينها والأنهار تتلاطم بعينها والمحل المشار إليه مشهور به أنبوب ماء يتصاعد كالفضة يسمونه بالنوفرة ، وفي لغة المدنيين (يقصد أهل المدينة) بالفوار ، يصعد ماء فواره نحو القامتين إذا حبس فمه لحظة أو لحظتين ونحو القامة دائماً . . . ثم سرنا الى مجلسنا المقصود مقيلنا به فإذا هو أنزه محل ترتع فيه الأبصار ، إيوان لطيف مركب على أعواد خشب يمر تحته نهر بردى وهو أعظم الأنهار السبعة (١) . . . وأما أنهارها السبعة فبعضها مرتفع في جهة اليمين وبعضها مرتفع في جهة اليسار وهي : نهر المزة ، نهر الداراني ، القنوات ، نهر بانياس ، نهر بردى ، نهر تورا ، نهر يزيد » .

« إن نهر المزة الذي هو أولها الى يمين من كان بالربوة واستقبل جهة الشام يسير في داخل الجبل نقراً في الحجر ، يظهر أحياناً ويختفي أحياناً .

ونهر الداراني ، وهو النهر الثاني أعلى مما قبله ومنه يسقى بستان النوفرة المتقدم ذكره ونهر القنوات وهو الثالث أعلى منه بنحو القامة مصعداً الى الجبل . ونهر بانياس وهو الرابع الى جانب بردى قريب منه . ونهر بردى وهو الخامس في وسط الأرض وأعظمها ومنه ينقسم بانياس عند المقسم في وسط الربوة ونهر تورا وهو السادس الى جانبه بنحو قامتين أو ثلاث ، وهو نهر عميق كثير الجري . ونهر يزيد وهو السابع فوقه بنحو ذلك في أعلى الجبل وبه محل يسمى الميشار (٢) ، شق في جبل ينزل منه الماء ، وأعظم من أعظم ميزاب كبير وبجانبه محل آخر نازل الى قريب تورا يبرز منه الماء أيضاً يسمى عين الذهب . هذا ما يتعلق بالربوة مما وقفت عليه . وبها محل يسمى المهد منسوباً لسيدنا عيسى (٣) ، صعدنا إليه لأنه في مرتفع من الجبل وهو قريب من نهر المزة » .

---

(١) كل ما ذكره الخياري من وصف للربوة وأنهارها وفروع بردى ينطبق على الواقع وما يزال إلى اليوم مشاهداً .

(٢) محل مشهور في الربوة وهو عبارة عن صخرة تعترض سفح قاسيون بصورة شاقولية وقد نحتت عليها كتابة بالخط الكوفي في العهد الفاطمي وعليها اسم المستنصر بالله .

(٣) لا أثر له اليوم وكان في الجبل الغربي من الربوة على يسار الطريق المتجه إلى بيروت . وقد ذكره المؤرخون القدماء والرحالة أمثال ابن جبير في رحلته (في العصر الأيوبي) ، والعمري في كتابه مسالك الأبصار (القرن الثامن الهجري) وقال بأن نور الدين بنى المقام المعروف بمهد عيسى .

الجامع الأموي :

ويتحدث الخياري عن الجامع الأموي الذي زاره أول يوم وصوله الى دمشق وتشرف بزيارة قبر نبي الله يحيى ، وكرر بعض ما ورد في الروايات التاريخية المعروفة عن الجامع . ثم وصف مشاهداته الشخصية قائلا :

فإذا هو موز بالرخام الملون الحسن الوضع والتنفيذ مشتمل على مقصورة بداخلها المنبر(١) العظيم الوضع المعمول من الخشب بأحكم صنع وبها المحراب الكبير الذي يصلي فيه إمام السادة الحنفية ، وبها محفل المكبرين . وأمام هذه المقصورة قبة عالية حسنة الوضع سامية يتزاحم الدمشقيون على التدريس في ذلك الوطن ويسمون المدرس به المدرس تحت القبة . والمسجد ولله الحمد عامر بالتدريس في مواطن منه أول النهار وآخره وبين العشاءين . وخطيبه يراعي النغمة في أداء خطبته كبلاد الروم وهي أول خطبة سمعناها مخالفة لوضع بلدتنا باعتبار مخالفة السنة ، وما بين الشام والروم وساير هاتيك الأقطار يراعون النغمة وحسن الصوت لا يدرون ما معنى فصاحة الألفاظ ولا بلاغة المعاني . لله در خطباء الحرمين ما أحرصهم على ذلك وأرغبهم في مراتب الفصاحة والبلاغة . وبالمسجد المذكور منارات أحدها في ركنه الشرقي قريباً من بابه المسمى جيرون ، عظيم وضعها شامخ رفعها لم تر العين لها ثانياً في عظيم الوضع ، فإنها مربعة من أسفلها وأساسها الى أعاليها مشتملة على أماكن في أثنائها كالأواوين طلعتها مع بعض أهل الخبرة من أهل دمشق لأحيط بها وتبركاً بها لأنهم يزعمون أنها التي ينزل عليها سيدنا عيسى بن مريم في آخر الزمان والله أعلم بصحة ذلك(٢) . وبها منارة أخرى يقال لها منارة العروس وسبب تسميتها بذلك كما أخبرني بعضهم أنه لما انتهت عمارته طلبوا رصاصاً لتغشية سقفه فلم يجدوه إلا عند امرأة من بنات التجار فطلبوا منها ذلك فامتنعت من بيعه بعد المبالغة بالثمن إلا أن تعطى

(١) احترق هذا المنبر في حريق عام ١٨٩٣ وتجدد من الرخام .

(٢) هدمت هذه المنارة في عام ١١٧٣ بسبب الزلزال وبنيت من جديد . وإن الوصف الذي يقدمه الخياري ينطبق على المنارة المهدومة .

زنته فضة فوافقها الملك على ذلك فوزن لهما ما طلبت فلما رأت ذلك قالت هذا ملك عادل نخطبته لنفسها فتزوجها ثم أعطته ذلك المال لبناء هذه المنارة فعمرت به فلذلك لقبت بمنارة العروس[١] . والمسجد لسقفه في جهة القبلة أبواب من الخشب توجف أبوابها وقت الشتاء عند شدة البرد واحتياج النـاس لذلك ، وبه بئر[٢] بها ماء عذب بارد دائماً شتاءً وصيفاً ، يملأ منها أواني ويدار بها على المصلين . وبه محل معد للوضوء به أنبوب ماء جار دائماً وأبداً . ومصلى إمام الشافعية على يمين مستقبل القبلة في محراب الحنفية داخل المقصورة الذي تقدم ذكره . وإذا كان زمن الصيف ظهر الإمام وصلى بالناس في صحن الجامع خوف الحر . وصحن الجامع هذا من أعاجيب الدنيا فإنه مفروش بالرخام الأبيض العظيم القطع الباهي البريق واللمعان . وله في أيام الصيف بهجة تامة يتفرق فيه الناس مجتمعين حلقاً وصفوفاً صفوفاً ويتمشى أقوام من طرفه الى طرفه ذاك ومن ذاك الى هذا ، كل خمسة أو أربعة أو ثلاثة أو اثنين سواء ، يمشون ذاهبين آيبين ويسمونه عندهم التسيير ، ولا ينكرون ذلك على من يفعله . ويزعمون أنه من قديم الزمن متعارف عندهم .

وبالمسجد المذكور أيضاً قبتان[٣] في طرفي صحنه أحدهما بالقرب من باب جيرون مركبة على عمد ستة يقال إن فلانة من النساء العالمات كانت تجلس بها وتنصب عليها الستائر فتحدث الناس وتفيد العلم فيأخذونه عنها الآخرون . والأخرى قريبة من باب البريد وهي مرفوعة على عمد جاهلية لها باب مغلق لا يدرى ما فيها ، ويزعم بعض الناس ممن لقيناه أن بها مكاتيب الأوقاف ، إما عموماً خشية الحريق ، وإما ما يتعلق بالمسجد ووقفه خصوصاً ، أو هو ما يتعلق باليتامى والأوصياء ، أو أنهـا لوضع أموال اليتامى لتحفظ هناك خشية الضيـاع أو لغير ذلك »[٤] .

---

(١) القصة محورة عن رواية ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ـ المجلد الثاني . صفحة ٣١ تحقيق صلاح الدين المنجد ، طبعة المجمع العلمي العربي بدمشق .

(٢) ما يزال هذا البئر موجوداً في الجانب الشرقي من الحرم . ولم يعد يستعمل بعد أن دخلت مياه الفيجة إلى الجامع .

(٣) من أجل صحن الجامع وما فيه من قباب ، يمكن الرجوع إلى مقالتنـا في مجلة الحوليات السورية ، المجلد الثالث عشر من صفحة ٥٣ إلى الصفحة ٧٠ .

(٤) صعدت إلى هذه القبة في عام ١٩٥٨ ودخلت من بابها الحديدي الصغير لأطلع على محتوياتها . فلم أجد سوى مصاحف ممزقة وأوراقاً مبعثرة عديمة الفائدة . وأخبرني قيم الجامع الشيخ حمدي الحلبي بأنه كانت فيها منذ خمسين عاماً كمية كبيرة من المخطوطات الثمينة بعضها على رق غزال ، وقد فتحت القبة في أيام الدولة العثمانية وأخذت مخطوطاتها إلى تركيا وبعضها بيع إلى بعثات ألمانية .

ويحيط بالمسجد مدارس (١) متعددة لها أبواب من داخله . ومن أشهر أبواب الجامع باب جيرون وهو الباب الذي كان يكثر دخولنا منه لسكنانا بجهته وقربه ولما حواه من اللطايف التي لاتوجد في غيره ، فمن أعجبه أن أول مايخرج الإنسان منه ويجاوزه غير بعيد على يمينه محل منتزه أمام خان القهوة معدود من متنزهات الدنيا يكون به كثير من الفضلا يشربون به القهوة . فان أمام الجالس بذلك المحل فوار (٢) ذلك الباب المعدود من العجـاب ، إذ هو يصعد فيه فضي الماء نحو القامة مع غلظ نحو الزند العظيم البلوري . فإذا ارتفـع ماء ذلك الفوار على النمط المذكور انحدر منعطفاً إلى أسفل متفرقاً كفروع أغصان تنصب في حوض من الرخام ذي الألوان ، وذلك كله ملحوظ للجالس بذلك المكان ، وهذا الماء لايزال جارياً مصعداً ومنحدراً دائماً وأبداً . ويباع في رحبة هذا الماء حوله أنواع فاكهة الشام » .

وبهذا الباب على يسار الخارج منه حارة الذهبيين (٣) وهي أماكن يمر فيها خيوط الذهب ثم لايزالون يعالجونها بالادخال في صفيحة من نحاس أو حديد خرقاً بعد خرق وكل ثان أضيق مما قبله حتى تنتهي إلى الرقة . إلى أن تصير كالشعر ثم يطرقونها بمطارق لطيفة وصناعة محكمة ثم يلقون ذلك المطروق على خيوط للحرير فيتركب منه القصب المعلوم ونحو ذلك عملهم للفضة وقد شاهدتهم حالة عملهم لذلك .

---

(١) انظر مقالنا عن المدرسة الجقمقية في مجلة الحوليات السورية ، المجلد العاشر ، ١٩٦٠ . ففيه احصاء لهذه المدارس .

(٢) هذا الفوار أو النوفرة مشهور منذ القرون الأولى من تاريخ دمشق العربي وقد وصفه ابن عساكر في القرن السادس ويتألف من بحرة ماء فوقها قبة على أعمدة وشاذروان . وقد تهدم أكثر من مرة . كان آخرها خلال زلزال عام ١١٧٣ للهجرة مع القهوة التي يذكرها الخياري ولم يبق اليوم سوى بركة صغيرة تحتوي على أنبوب الماء الغليظ ولكن بدون ماء بسبب قطع مياه النهر عنه ، ومايزال الحي يعرف به ـ حي النوفرة ـ .

(٣) لم يعد لها وجود اليوم ، كما أن صناعة خيوط القصب انقرضت أيضاً منذ سنين طويلة ، وأصبح المهتمون بنسيج البروكار وأمثاله يستوردون ما يشبه هذه الخيوط من الخارج ، ومما يؤكد شهرة هذا المكان بصناعة خيوط القصب تسميته في عام ١١٧١ هـ أيضاً بسوق الذهبية وتسمية الحمام المعروف اليوم بحمام النوفرة بحمام الذهبية أيضاً وذلك استناداً الى نص مخطوط لهرة الأستاذ دهمان (مجلة المشرق ، السنة الثامنة والأربعون) .

وأما باب البريد فهو المشهور قديماً وحديثاً بالغير والخدود ذات التوريد ، وكان يطرق سمعي بيتان شهيران قديمان هما :

عرج ركابك عن دمشق فإنها   بلد تذل له الأسود وتخضع
ما بين جبهتها وباب بريدها   قمر يغيب وألف بدر يطلع

... وأما الجبهة المشار اليها فقد سألت عنها كثيراً فلم أر من يعرفها ... قلت ثم في حال العود اجتمعت ببعض فضلائها ببيته قريباً من باب البريد فأطلعني إلى محل عال يبدو منه كسر عقد قديم مركب من أحجار كبار تشبه في هيئتها الجبهة (١) .

وباب البريد هذا يتصل به سوق (٢) من أعجب الأسواق به يباع العطر وماشاكله . وفي القرب من باب البريد المذكور إلى يمين من أراد الخروج من المسجد زاوية (٣) عمرة البناء يقيم فيها وظيفة الذكر أبناء مولانا المرحوم الشيخ أيوب الخلوتي (٤) وأبناؤه المذكورون من أعيان أهل دمشق .

المقاهي والحمامات

ثم من ألطف ماتلحظه بالشام النواظر خانات القهوة وهي متعددة متفاوتة في المحاسن فمنها الخالي من الأنهار الجامع للأقمار ومنها المشتمل على أنهار ، وما ألطف كاساتها إذا حملتها أكف سقاتها ، وأما إذا أدبرت الغزالة وجر الليل أذياله فإنك ترى بسمائها من نجوم القناديل شباكاً وأطواقاً . إنها بذلك القطر أعمر من الجوامع ...

---

(١) يشير هنا إلى القسم المتبقي من باب معبد جوبيتير المبني في العهد الروماني ويتجلى بأعمدته الضخمة وجبهته المثلثة Fronton ذات النقوش الرائعة .

(٢) يعرف السوق اليوم بسوق المسكية وتباع فيه القرطاسية ولوازم المدارس .

(٣) يقصد بهذه الزاوية المدرسة الصادرية . وكانت أول مدرسة انشئت في دمشق . بناها عام ٤٩١ هـ الأمير شجاع الدولة صادر . وقد اندثرت ولم يعد لها وجود .

(٤) وهو أحد مشايخ الطرق توفي عام ١٠٧١ هـ (المحبي ، خلاصة الأثر ١/٤٢٨) .

وأما حماماتها فكل منها يكسب النعيم ، تشمل على لطافة الأوضاع وحسن الصناع من كل من إن جس قلت طبيب حاذق ، إذا جسوا الأبدان بهاتيك الأكياس أظهروا صفا اللؤلؤ ... ولله در بعض أهل الفضل من أهل العصر حيث يقول :

افدي الذي دخل الحمام متزراً بازرق وبليل الشعر ملتحفا
دقوا بطاساتهم لما رأوه بدا توهماً ان بدر التم قد كسفا(١)

ثم يتحدث عن الأسواق ولا ينسى الغزل ويختم زيارته لدمشق بقوله : « وستكون لنا إن شاء الله تعالى لصفاتها الفائقة ومحاسنها الشائقة عودة عند العود من الديار الرومية والوصول من العتبات الخاقانية . . . ومدة إقامتنا بهـا المشار إليها ثمانية عشر يوماً أولها يوم الأربعاء الخامس والعشرين من صفر ونهايتها اليوم الثالث عشر من ربيع الأول وهو يوم الأحد ، فبرزنا من الشام ضحوة ذلك اليوم قاصدين الديار الرومية والأبواب السلطانية العثمانية .. » .

طريق القوافل بين دمشق وانطاكية(٢)

« فسرنا ونحن مسرورون معنا جمع من الأصحاب وكثير من الأحباب فمررنا بحضرة مولانا الشيخ رسلان حالة الذهاب ، وقد زرنا قبله رباع المسجد الأموي . . . فوصلنا أول منزل من هاتيك المنازل وهو المسمى القصير(٣) ، فإذا هو منزل مأهول به يباع مايحتاجه

(١) يشير هنا إلى تقليد كان شائعاً حتى سنوات في سورية ، ألا وهو ضرب الطاسات وإصدار الأصوات عند حدوث الكسوف ، اعتقاداً من العامة بأن الحوت قد بلع القمر . وهم في عملهم هذا يريدون إزعاجه ليتخلى عنه .

(٢) كان هناك طريقان تسلكهما القوافل في العهد العثماني بين دمشق وإنطاكية الأول شرقي وهو الطريق الرئيسي الذي سلكه الخياري في هذه الرحلة ، والثاني غربي يبدأ من الصالحية ويمر بقبة السيار ويمر بدمر فالزبداني فبعلبك فاللبوة فالقصير فحمص حيث يجتمع هناك الطريقان .

(٣) قرية على الطريق بين دمشق وحمص . تبعد عن دمشق ١٧ كيلو متراً تشتهر بوجود مستشفى للأمراض العقلية وآخر للجذام فيها ، كما تشتهر بمياهها وأشجارها . وقد كانت منذ القديم محطة للقوافل . ولا يزال الخان الأيوبي إلى اليوم فيهـا ، نزل به الرحالة ابن جبير في عام ٥٨٠ هـ وقد ضم إلى مستشفى الأمراض العقلية منذ سنوات .

المسافرون من الخبز واللبن والبيض والبقول ، وبه خان كبير ينزله المسافرون أيام الشتاء فلم نحتج إليه نحن بل نزلنا بالخيام لأن الوقت وقت صيف وأقمنا به إلى أن صلينا العصرين والعشاءين ، وكانت ليلة بدرية لذ لنا السمر واجتلاء ضوء القمر ، ثم نودي بالرحيل بعد أن تناصف الليل أو كاد فسرنا على ظهور الجياد ، نطوي (بغازاً) ضيقاً في أثناء الطريق ونمر على ضيعات ذات محاسن وتنميق حتى أسفر الفجر ، ثم مررنا غير بعيد فبدت لنا أعلام المنزل المقصود المسمى القطيفة (١) بالضم والتصغير ، هكذا سمعته من أفواه الجم الكثير ، فإذا هو واد مشتمل على مزارع وغيضات وبه يباع الحبحب والشعير والعنب والبيض وما يشاكله مما يقتات ، وبه مسجد عامر وخان متسع الأكناف أتم اتساع يشتمل على بركة ماء في وسطه وخانات تسكن في جهاته وأماكن حسنة الوضع جداً لاتستحق من النازلين ، وإن كان الزمن صيفاً ، صداً وبعداً . ولكننا لم ننزله بل نزلنا بالخيام وأقمنا به إلى أن صلينا العشاءين ثم سرنا فمررنا بخانين (٢) بالطريق خاليين وضياع بها نيران موقودة اعلاماً للسائرين بان جماعات أهلها موجودة . وعندما أسفر الفجر مررنا بمحل يسمى الجسر (٣) يباع به نضيج الحلوى الحارة والعيش وينادى على ذلك للترغيب ، ثم مررنا بعد أداء فرض الصبح إلى أن لاحت لنا منارة عالية البناء فوصلناها فإذا عندها خان حسن الوضع يستوجب النزول به وبه مسجد لطيف

---

(١) هي اليوم قرية كبيرة على الطريق بين دمشق وحمص وتبعد عن دمشق مسافة أربعين كيلو متراً . فيها خان قديم أيوبي تمر فيه قناة ماء غزيرة يعرف اليوم بالخان العتيق أو خان نور الدين ، أما الخان والمسجد الذين ذكرهما الخياري فهما مع الحمام المجاور لهما من بناء الوالي التركي سنان باشا المشهور الذي تولى دمشق بين عامي ٩٩٥ و ٩٩٩ للهجرة وبنى فيها الجامع المشهور بالسنانية (انظر ترجمته في المحبي ـ خلاصة الأثر) ، وما تزال هذه المجموعة المعمارية في القطيفة قائمة بحالة جيدة .

(٢) يمر المسافر اليوم من دمشق إلى حمص وبعد أن يجتاز القطيفة بعشر كيلو مترات بخانين غير بعيدين عن بعضهما الأول هو خان العروس بناه السلطان صلاح الدين بدليل كتابة فوق بابه تسميه بالفندق وتذكر تاريخ بنائه في عام ٥٧٧ للهجرة أما الخان الذي يليه فملوكي ويعرف بخان المعز .

(٣) لا يوجد على هذا الطريق محل بهذا الاسم ولكن توجد قرية بين القطيفة والنبك تعرف اليوم بالقسطل وهي قديمة . ورد ذكرها عند ابن كثير في حوادث عام ٧٤٢ هـ . ولعل الخياري قد التبس عليه الاسم فكتب الجسر بدلاً من القسطل .

جداً له شبه تام بمسجد القطيفة . وهذا المنزل المبارك هو المسمى بالنبك (١) وإذا هو منزل عامر به مايباع من اللحم والبيض والدبس والشعير والتبن وغير ذلك . وبه نهر عذب الماء حلوه بارده وهو عذب الهواء . والمنزل متسع حول مسجده وخانه أشجار مخضرة لم نأكل من ثمارها شيئاً لما أخبر بعض أهله أنه أصابها سقعة برد فهلكت . وأقمنا به إلى أن وجب فرض العشاء فأديناه ثم سرنا إلى أن مضى من الليل نحو الثلث فانتهينا إلى البلدة المسماة بالقارة (٢) فإذا هي بلدة قائم كثير من بنائها ، قد نعب غراب البين في جهاتها ، فجاوزناها مسرعين ... إلى أن صلينا الصبح ببعض التلال وقد لاقانا قبله عسكر المنزل المقصود نزوله المسمى بالحسيا (٣) فإنه جرت عادتهم بان العسكر الشامي الذي يخرج للحرس إذا وصل إليها سقط عنه ذلك وقام به عسكرها فتسلم عسكرها الحاج للغفر وعـــاد الأولون إلى وطنهم . فلما تعالى النهار وارتفعت الشمس ارتفاعاً على المقدار وصلنا المنزل المذكور فإذا هو منزل فسيح به العنب والحبحب والتين واللبن والتبن والشعير . وقد وصل ونحن به يوم الأربعاء سادس عشر الشهـر (اولاق) (٤) من الباب العالي السلطاني متوجهاً إلى باشا مصر بدبوس وقفطان ومعه أمير ياخور (٤) السلطاني فأقام لحظة في بيت المنزلجي ثم توجه مسرعاً بين العصرين . والمنزل المذكور به خـان عامر مشتمل على أماكن ينزلها المارون وأقمنا به إلى أن أدينا فرض العشاء وسرنا في رياض مخضرة

---

(١) بلدة صغيرة على جبل القلمون وعلى طريق دمشق حمص وتبعد عن دمشق مسافة ٨٠ كيلو متراً ، أما خانها المذكور فقد بناه والي دمشق صالح باشا أيام ولايته عام ١٠٧٥ وهدم في عام ١٩٦٢ لبناء مدرسة في مكانه (انظر مقالة العالم الأثري سوفاجه عن الخانات : Sauvaget : Ars Islamica IV 1937 P.98 وأما الجامع فهو ملاصق للخان وما يزال باقياً وهو جامع صغير على الطراز العثماني يعرف بجامع الغفاري وقد بني قبيل عام ١٠٥٨ نظراً لوصفه من قبل الرحالة التركي آوليا جلبي – الذي مر من النبك في هذا العام – وذكر الجامع وقال لو بني في جواره خان زاد عمرانهـــا (جولة أثرية – وصفي زكريا – دمشق ١٩٣٤ ص ٢٦) .

(٢) قرية بين النبك وحمص فيها جامع قديم على شكل كنيسة بيزنطية وفيها خان من العهد الأيوبي لم يذكرها الرحالة ، لعدم نزول القافلة بقارة ومرورها فيها ليلاً .

(٣) وحسيا اليوم قرية على الطريق تبعد عن حمص ٤٠ كيلوا مترا ، أما خانها فقد اندثر منذ سنوات . ويذكر المحبي في ترجمته لوالي دمشق صالح باشا باني خان النبك بأنه هو الذي أمر ببناء خان حسيا أيضاً .

(٤) كلمتان تركيتان الأولى تعني ساعي البريد . والثانية تعني رئيس اصطبلات السلطان .

يفوح بها نشر الشيح إلى أن لاح الفجر فلاحت أعلام حمص . فأول ماظهر لنا قلعتها (١) فإذا هي قلعة متسعة الجوانب كثيرة المذاهب بها مصحف (٢) سيدنا عثمان الذي يزعمون أنه قتل وهو يقرأ فيه وهو أحد أربعة مصاحف يقال فيها ذلك واحد بالمدينة وآخر بمصر بجامعها العتيق وآخر بالشام بالجامع الأموي . ويقال أنها منذ فتحت في زمن سيدنا عمر لم تزل خراباً ... ورأيناها بلدة كبيرة عظيمة إلا أن غالبها خراب ومعمورها قليل وبها سوق يباع فيه مايحتاج إليه ويباع كثير من الأقمشة المضلعة بالحرير والبشاكير التي توضع على الركب المزخرفة بالألوان العجيبه . وبها مساجد ومنائر منهـا مسجد (٣) يقال أنه بناه نور الدين الشهيد وهو عجيب الوضع به العواميد الرخام ، والمسجد وما حوله من محرابه وغيره مؤزر بالرخام الكبير قطعه ، الملون بالألوان وإلى جانبه مزار به قبر يقال أنه قبر عمرو بن أمية الضمري (٤) ساعي رسول الله ﷺ . وأمامه بالقرب منه في داخل خان (٥) معد للمسافرين عجيب بناؤه وإلى جانبه تكية (٦) عامرة البناء غير جار بها ماء عين ، بها سيدنا عبد الرحمن بن عوف ، وأمـامه غير بعيد قبر

---

(١) وهي من العصر الأيوبي ، ولم يبق منها سوى آثار ضئيلة . تقع في الزاوية الجنوبية الغربية من سور المدينة فوق تل مرتفع . وقد تحولت اليوم الى ثكنة عسكرية . (انظر صورتها كما شاهدها الخياري قبل تهدمها)

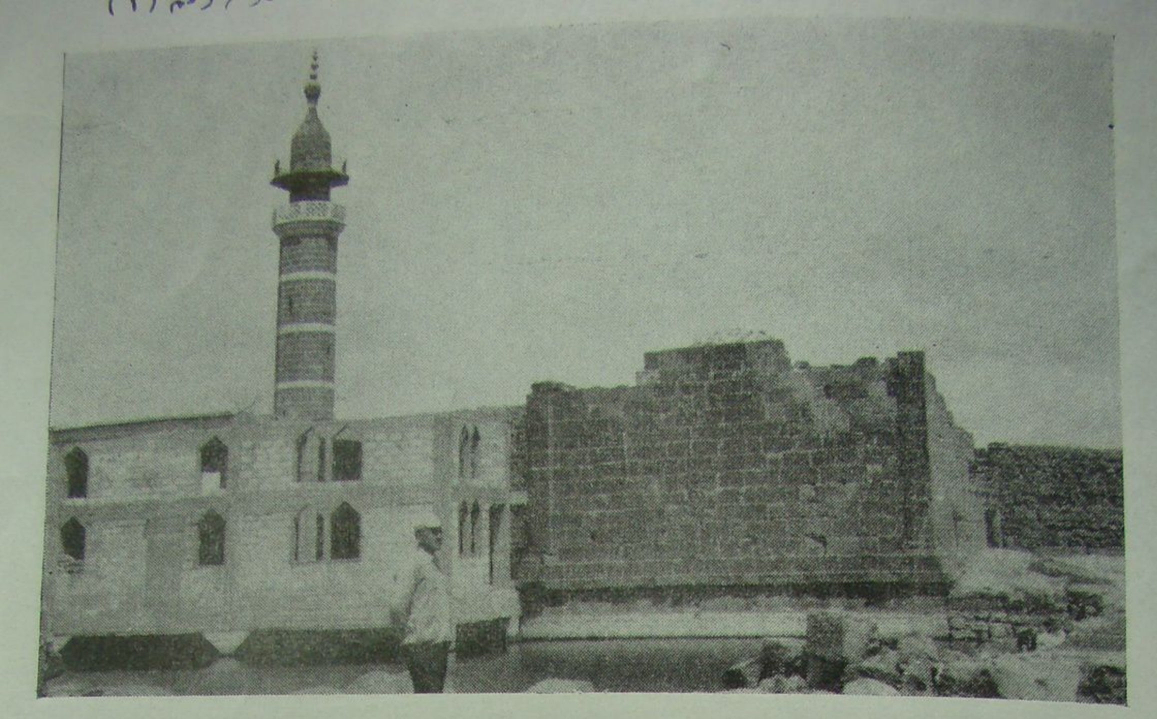
(٢) تواترت الروايات التاريخية عن وجود هذا المصحف في حمص . وقد روى لي أحد المسنين بأن جمال باشا نقله الى استانبول خلال الحرب العالمية الأولى .

(٣) ما يزال هذا المسجد عامراً ويعرف بالمسجد النوري ، وكان أصله كنيسة ، وطرأت عليه مؤخراً تغييرات كثيرة فأزيلت أعمدته الغرانيتية وأبدلت بعضائد مربعة خلال ترميم عام ١٢٧٨ ، كما تبدل سقفه وزال الرخام الملون الذي يتحدث عنه الخياري وحل محله رخام أبيض .

(٤) يقع هذا المزار اليوم الى الغرب من الجامع الكبير على مسافة بضعة أمتار يعرف بمسجد الروضة .

(٥) هدم هذا الخان ولم يبق منه سوى آثار قليلة ويقع الى الشمال من الجامع النوري .

(٦) أما التكية فلا يوجد في حمص سوى التكية المولوية وهي من العهد المملوكي . تقع الى الغرب من الجامع النوري وقد هدمتها البلدية في عام ١٩٥٧ وشقت في مكانها طريقاً . وكان على بابها كتابة تؤرخ بناءها في عام ٨٤١ هـ .



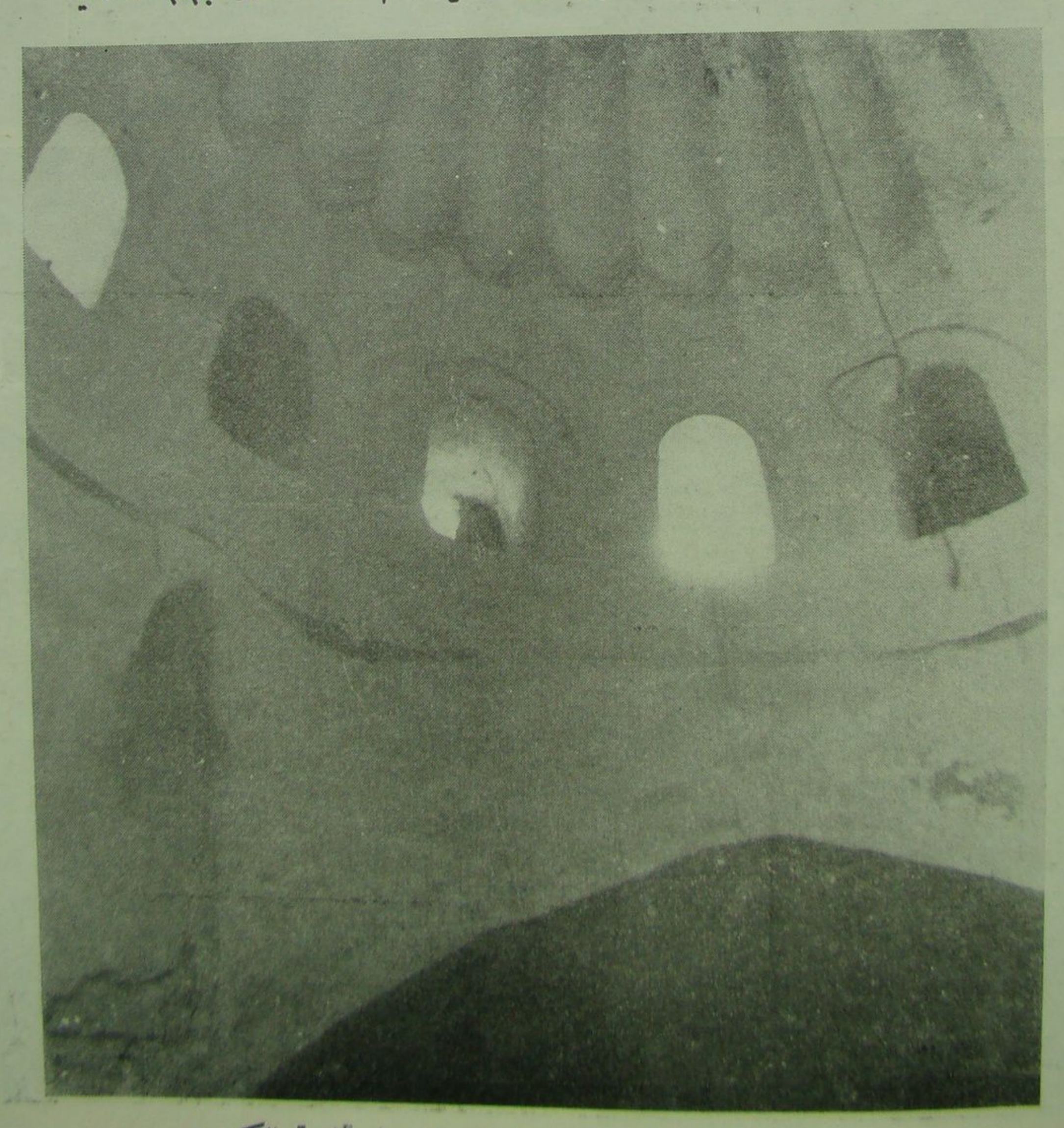
١ ـ الصنمين : منظر عام من الجنوب للمعبد الروماني والجامع
بعد تجديده وخلفهما البركة الآثرية التي أشار اليها الرحالة

٢ ـ الصنمين : منظر داخلي للمعبد الروماني

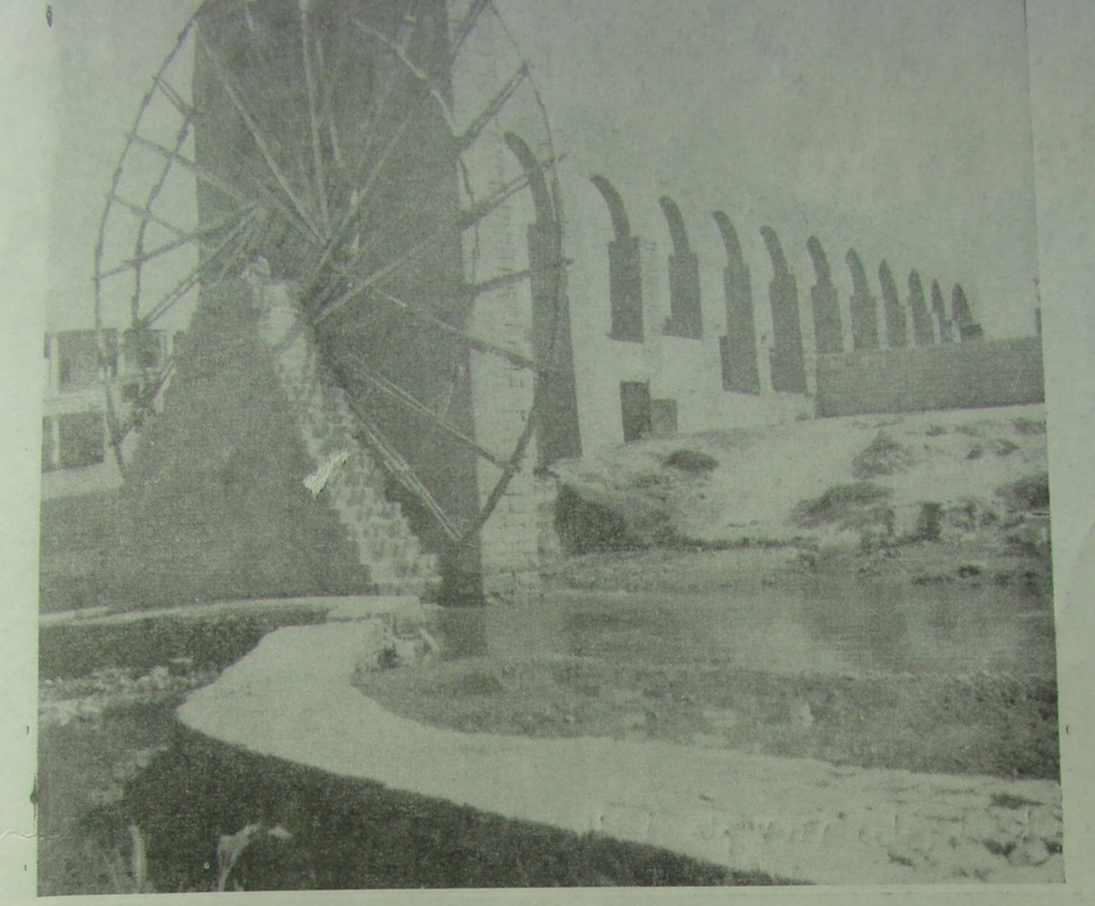
١ ـ جامع النبك

٢ ـ خان النبك اثناء هدمه ، منظر داخلي لجانب من الجناح الرئيسي ، والمواقد الحجرية الموزعة في أرجائه

١ ـ التكية المولوية في حمص قبل زوالها في عام ١٩٥٧ وواجهتها الشمالية



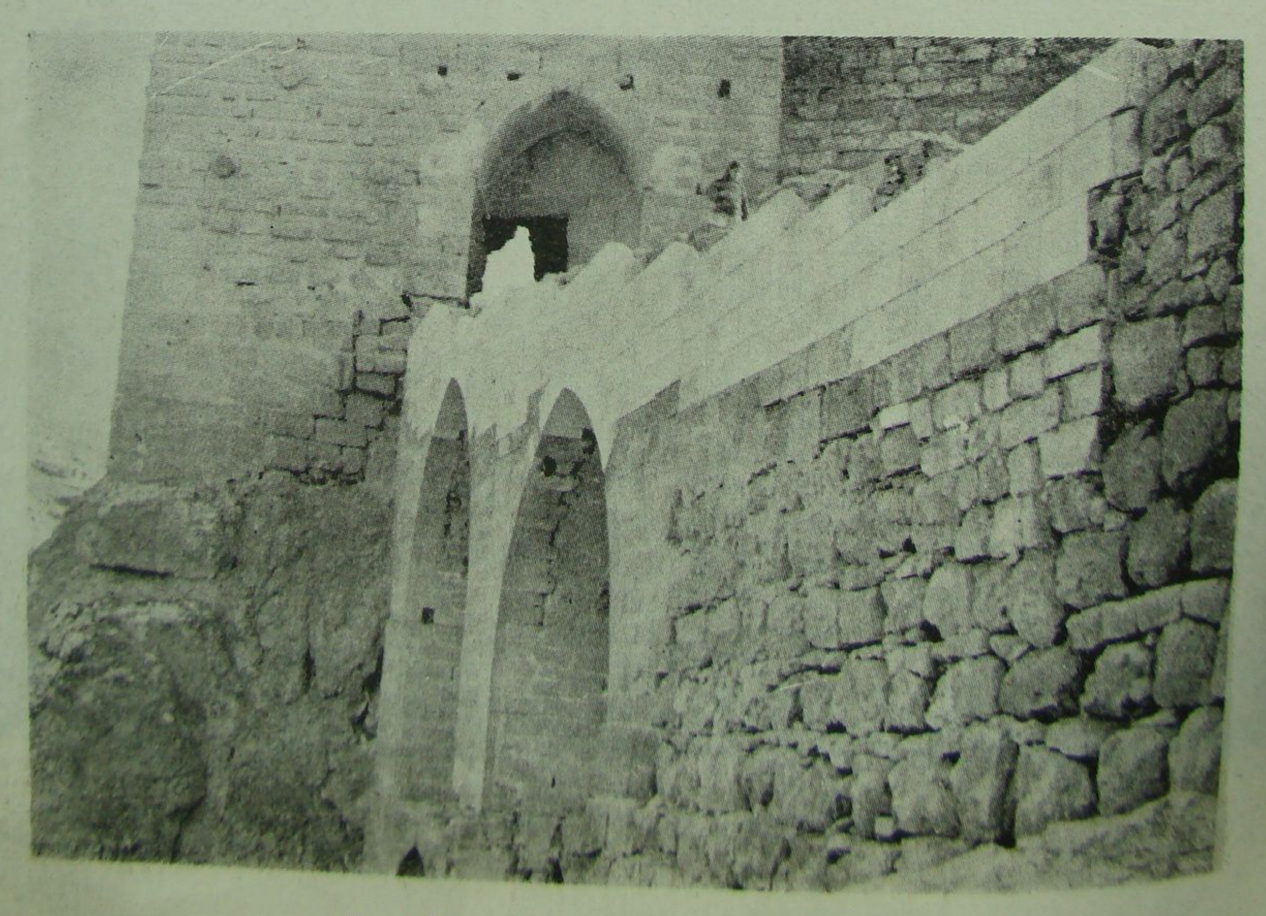
٢ ـ منظر داخلي للتكية تبدو فيه تفاصيل القبة الكبرى



١ ـ الناعورة المحمدية في حماة

٢ ـ قصر بيت الكيلاني في حماة والمنطقة المحيطة به المطلة على نهر العاصي بالقرب من قصر العظم

١ - صورة جوية لقلعة المضيق المشرفة على سهل الغاب وإلى جانبها من الشرق أطلال مدينة أفاميا وعند سفحها الشمالي يقع الخان والجامع الذين شاهدهما الرحالة



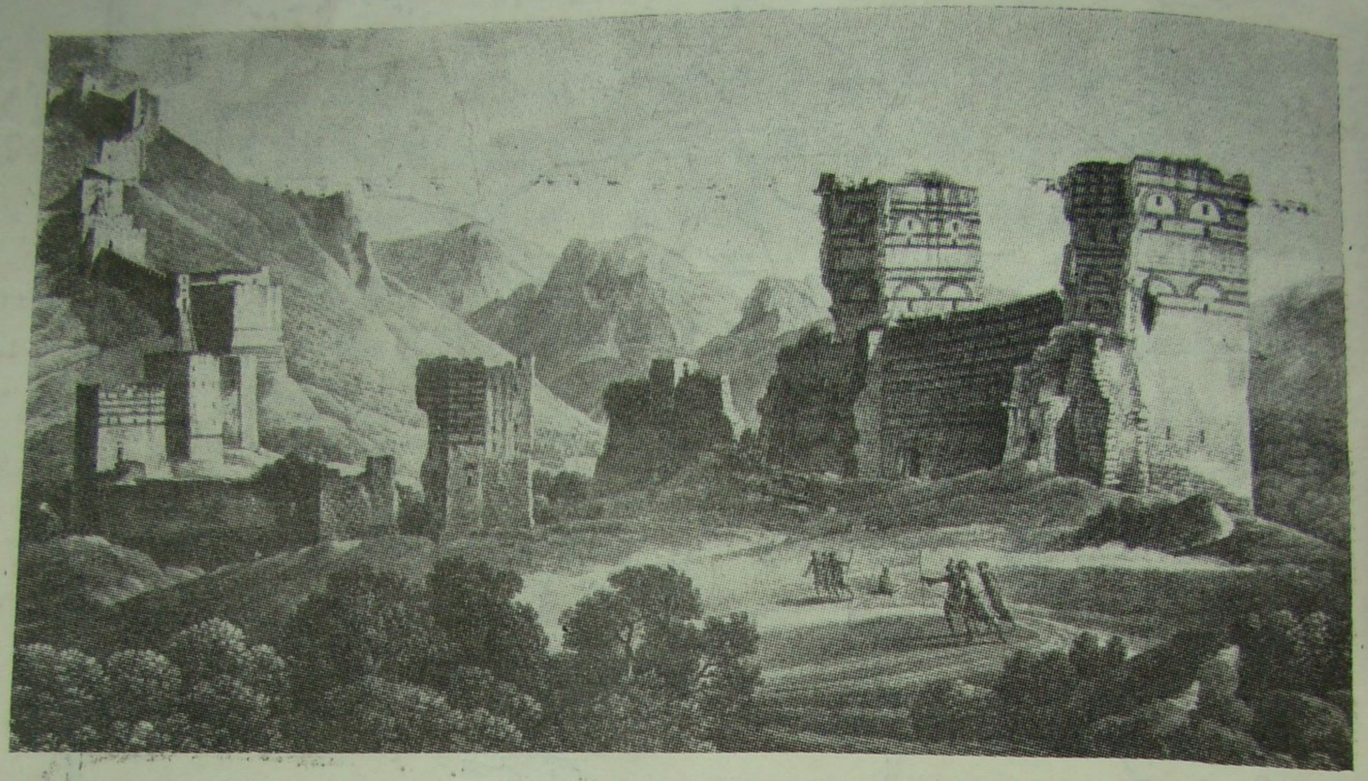
٢ - قلعة شيزر : برج المدخل والجسر المؤدي اليه



١ ـ خان سعسع : منظر عام للخان وقد احتلته مساكن القرية

٢ ـ بوابة الخان في واجهته الشمالية

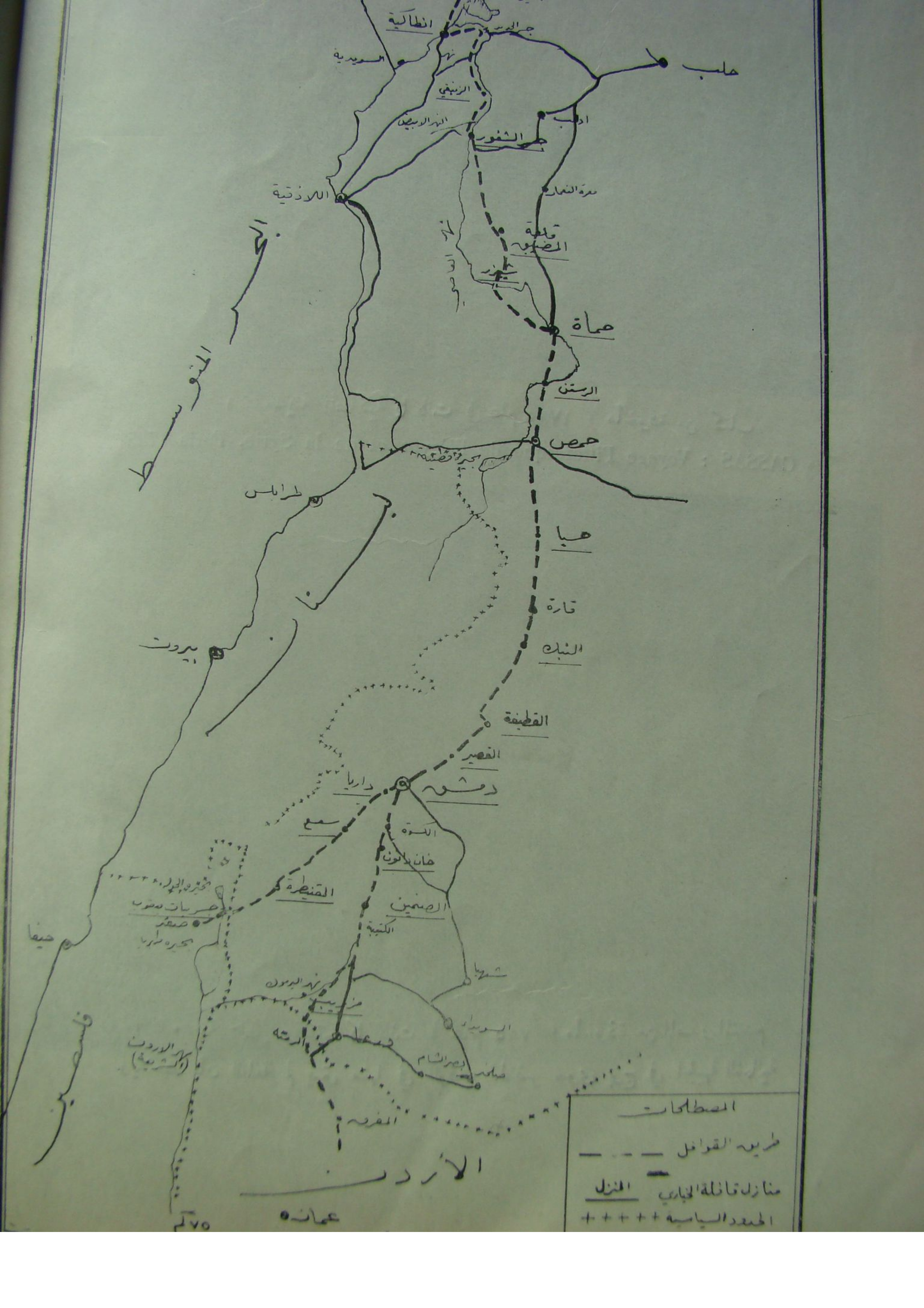
اللوح رقم (٧)



١ ـ مدينة انطاكية كما كانت في عام ١٧٨٥ ، مأخوذة من كتاب

CASSAS : Voyage Pittoresque de l'Egypt et de la Syrie, Paris 1785

٢ ـ مدينة حمص وقلعتها كما كانت في عام ١٧٨٥ ، مأخوذة من المصدر المتقدم
ويلاحظ بأن القلعة لم يبق منها في الوقت الحاضر سوى برج في الجبهة الشمالية



حلب
انطاكية
اللاذقية
حماة
الرستن
حمص
طرابلس
حسيا
قارة
النبك
بيروت
القطيفة
القصير
دمشق
داريا
سعسع
القنيطرة
الصنمين
حيفا
فلسطين
الأردن
عمان
البحر المتوسط
لبنان
المصطلحات
طريق القوافل
منازل قافلة الحاج
المنزل
الحدود السياسية

سيدنا خالد بن الوليد (١) وأقمنا بها إلى أن كاد أن يجب المغرب وبعد سير يسير صليناه ثم سرنا وبينا نحن سائرين سمعنا صوت النوبة (٢) السلطانية الواصلة لملاقاتنا معشر الركب مع أمير حماة الأمير هرموش فإنه وصل هو وعسكره والنوبة تضرب بين يديه ضرباً لحسن الايقاع أذهب الكسل وأطرب الاسماع. فسرنا بعد ملاقاته وسار أمامنا بعد مواجهة سقاباش السلطاني وسارا منبسطين تضرب النوبة بين أيديهم والناس منتشرون أماماً منها يميناً ويساراً قد هزهم الطرب. فمررنا بالطريق بمزار على يمين السائر يقال إنه قبر أبي يزيد البسطامي (٣) فزرناه ثم سرنا غير بعيد فوصلنا إلى النهر المسمى بالعاصي فإذا هو من أعظم الأنهار يسمع له دوي وصوت عالٍ مررنا على كبري (٤) عظيم يسمع للمارين عليه جلبة أصوات. ثم بعد مجاوزته نزل الأمير المذكور وسقا باش ونزل الناس على يسار الكبري وأقاموا به ساعة طويلة بحيث استراح الركاب والدواب ثم ضربت النوبة السلطانية وسارا وسار الناس إلى أن طلع الفجر،

---

(١) لم يثبت تاريخياً موت خالد بن الوليد في حمص، ولكن قبره معروف فيها منذ القديم، ذكره ابن جبير في القرن السادس الهجري عند مروره بحمص وقد اهتم به السلطان الظاهر بيبرس وبنى عليه قبة ومسجداً وصنع له تابوتاً من الخشب المتقن الحفر محفوظ اليوم في متحف دمشق، ثم تهدمت منشآت الظاهر بيبرس وجددت على القبر تربة وبني مسجد على الطراز العثماني في أيام السلطان عبد الحميد يعد اليوم من أجل مباني حمص التاريخية.

(٢) ويقصد بها الجوقة الموسيقية.

(٣) يوجد مزار البسطامي اليوم في جامع بلدة الرستن وعلى باب المصلى أبيات من الشعر تشير الى تجديده في عام ١٢١١ هـ. والبسطامي من مشايخ الصوفية نسبة الى بلدة في فارس وقد توفي عام ٢٦١ هـ.

(٤) يقصد بهذا الجسر جسر بلدة الرستن الواقعة في منتصف الطريق بين حمص وحماة وكان فيها خان نستغرب أن لا يذكره الخياري بينما ذكره الرحالة أوليا جلبي الذي مر قبله بسنوات كما ذكرنا (عام ١٠٥٨)، وقد زال منذ سنوات الخان والجسر القديم بسبب إنشاء سد على نهر العاصي في مكانهما. وقد أطلعني مؤخراً الزميل الأستاذ عبد الودود برغوت على مخطوط من مكتبة أبو السعود الحسيبي في دمشق، يتضمن رحلة نجم الدين الغزي الدمشقي عام ١٠٣١ للهجرة من دمشق الى استانبول ويقول فيها عن خان الرستن: « وقد عمره الأمير فياض أمير بني صار، وهو خان جديد كأنما فرغ منه المعمار ». وهذا يؤكد لنا بأن الخان بني في حدود ١٠٣٠ للهجرة وليس من بناء سنان باشا والي دمشق في أواخر القرن العاشر، كما يقول وصفي زكريا في كتابه جولة أثرية، ذلك أن سنان باشا توفي سنة ١٠٠٤.

ساعة تضرب النوبة وساعة يمسكون عن ذلك . ثم سرنا إلى أن أسفر النهار فوصلنا حماة يوم الجمعة صباحاً فرأيناها بلدة عامرة كبيرة مشتملة على مساجد كثيرة وأسواق قائمة وبساتين مخضرة. وقد صليت الجمعة ببعض مساجدها العامرة مع خطيب أشيب فصعد منبره وأدى خطبة بليغة في الجملة سالمة من اللحن أداها كما تؤدى بجامع دمشق يراعي النغمة في أدائها وتلك عادة هذه الجهات . وبهذه البلدة في خلالها النهر العاصي يجوس بين بيوتها ويدخل في أماكنها وعلى حافاته وجوانبه قصور مرتفعة ومساجد عامرة ودامرة ومن أعجب ما بحماة النواعير التي ترفع الماء من العاصي للانتفاع به وهي عجيبة الوضع حسنة الصوت اللذيذ في السمع . رأيت أعجب ما فيها من النواعير ناعورة تسمى المحمدية (١) ويدور على ألسنتهم أن سبب تسميتها بذلك أنهـا بعد ما عملت وتم صانعها وضعها على الوجه الأكمل أراد أن تدور فلم تدر فقال لها بحب محمد ﷺ دوري فدارت في الحال ، فلقبت بالمحمدية . ورأيت ناعورتين (٢) متقابلتين بين محلين شامخين أحدهما مسجد منسوب للمرحوم نور الدين الشهيد والثاني قصر شامخ للسيد عبد القادر أحد أولاد المرحوم السيد عبد القادر الجيلاني من أعيان البلدة . والعـاصي يسير بين الناعورتين . وأقمنا بها يوم السبت التاسع عشر ، فسرنا حتى تناصف الليل فوصلنا إلى منزل يقال له سيجر (٣)

---

(١) هي أكبر نواعير حماة وأقدمها تقع في محلة باب الجسر قرب المسلخ وعليها كتابة مملوكية تؤرخ بناءها في عام ٧٦٣ هـ ولها قناة تسقي الجامع الكبير وأماكن أخرى . وهي ما تزال تعمل وتعتبر من الآثار القديمة (انظر الصورة في آخر المقال) .

(٢) الناعورتان المذكورتان يقصد بها ناعورة الجسرية على الضفة اليسرى وناعورة الصهيونية على الضفة اليمنى في محلة تشتهر اليوم بجسر بيت الشيخ وما تزالان موجودتين الأولى قريبة من جامع نور الدين الوارد ذكره في نص الخياري وهو مشهور بين آثار مدينة حماة ، والثانية تجاور قصر بيت الكيلاني المبني في النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري . وهو ايضـاً من مباني حماة التاريخية ، ويعد مع ما جاوره من المباني من أجل مواقع المدينة السياحية لأنهـا تحتفظ بطابعها التاريخي القديم ، (انظر الصورة المنشورة مع هذا المقال) .

(٣) ويقصد بها شيزر حيث توجد القلعة الأيوبية الشهيرة وتحتها يمر العاصي وعليه الجسر التاريخي ذي الثماني قناطر وعليه النواعير . أما الجامع المذكور في النص والخان والحمام فقد اندثرت ولم يبق سوى أجزاء قليلة من الخان يسكنه فلاحو القرية ، كما أفادنا الأستاذ كامل شحادة مراقب آثار محافظة حماة .

به مسجد عامر وبساتين ويظهر به العاصي ظهوراً كثيراً ويسير تحت (كبري) طويل غير عريض . ثم جاوزناه سائرين إلى الصباح فوصلنا منزلاً يقال له المضيق (١) به خان جديد عمره وجدده محمد آغا قزلار . وبنى قلعة جديدة بقرب الخان وبها مسجد ومنارة . والقديمة بأعلى الجبل . وفيه ناس ساكنون وبه مجتمع ماء . يجتمع من عين ماء هناك وبه عنب نفيس رقيق القشر جداً أحلى عنب أكلناه في سفرنا هذا . وأقمنا به إلى أن كاد أن يجب فرض المغرب ثم سرنا غير بعيد فمررنا بمضيق يمينه جبل ويساره أشجار كبار وصغار وبه من الناموس الأمر العظيم بحيث آلم بقرصه المارين . ثم سرنا إلى أن وصلنا مع الفجر إلى المنزل المقصود المسمى بالشغر (٢) فإذا هو منزل بين جبلين غير مرتفعين يجوس بينهما نهر العاصي عليه (كبري) طويل

---

(١) موقع يطل على سهل الغاب ووادي العاصي من الجهة الشرقية يشتهر بأهميته التاريخية لوجود أطلال مدينة افاميا التي أنشأها السلوقيون وقلعة المضيق الأيوبية التي يقطنها أهالي القرية ، والى جانب القلعة بنيت المجموعة المعمارية العثمانية التي يصفها الخياري ، بالقلعة الجديدة . ولا نعتقد بأن تكون هذه الأبنية من آثار سنان باشا كما يزعم وصفي زكريا في كتابه جولة أثرية ص ١٥٣ فقد ذكرها الرحالة الغزي الذي نزل بالخان سنة ٩٣١ وقال عنه بأنه جديد ونسبه الى محمد آغا قزلار أيضاً .

(٢) بلدة حديثة نشأت عند الجسر التاريخي المقام على نهر العاصي عند عقدة الطرق الهامة بين حلب واللاذقية من جهة وبين انطاكية وأفاميا من جهة أخرى منذ العهد الروماني وعند مرور أوليا جلبي عام ١٠٥٨ هـ قال إنه مكان موحش فيه خان صغير ورجا الله أن يوفق أهل الخير لعمران المكان وتوطيد الأمن فيه ليسهل مرور الحجاج منه . ولم يمض وقت طويل حتى انشأ محمد باشا الكوبرلي الوزير التركي الشهير الخان والجامع والحمام وأحدث تكية فيه حوالي عام ١٠٧١ هـ وهي المجموعة التي وصفها لنا الخياري ، ثم نشأت حولها المدينة المعروفة اليوم بجسر الشغور . أما الجسر فيقول عنه وصفي زكريا في كتابه جولة أثرية بأنه مؤلف من ١٤ قنطرة وعليه كتابة مملوكية من عهد السلطان جقمق (منتصف القرن التاسع الهجري) . وكلمة الشغر التي أطلقت على الجسر والمدينة أتت من وجود قرية الشغر القديمة الحاوية على القلعة الأيوبية الحصينة الواقعة على بعد سبع كيلو مترات الى الشمال من المدينة الحالية .

جداً معد للمرور عليه ليصل المارون عليه إلى ما أنشأه حضرة مولانا المرحوم الوزير الأعظم محمد باشا من قلعة عامرة تحتوي على أماكن للسكن كثيرة وعلى مسجد عظيم بين يديه رحبة فيها فوار ماء عظيم وبه بحرة ماء عليهـــا مربع مغشى بالرصاص وفي البحرة أنابيب للوضوء والمسجد مبيض الجهات عليه قبة واحدة عظيمة الوضع وبه محراب مشرق ومنبر كذلك وماء هذه البحرة ينبع من جبل هناك حلو بارد وليس من ماء نهر العاصي . وبعد دخولنا المسجد المذكور اجتمع بنا خطيبه وإمامه وأكرمنا بما تيسر ، أخبرنا أن العمارة الموجودة من المسجد المشار إليه والخان العظيم الوضع الذي لم نر إلى الآن أعظم منه وضعـاً ولا أتقن صنعاً فيه أماكن كثيرة للمسافرين معدة لنزولهم وفي وسطه محل موضوع على أركان أربعة تحته بحرة ماء بها فوار عظيم وتخت من خشب يجلس عليه وفوقه مسجد مربع به طاقات ومحراب يصعد إليه بدرج ، وفي مقابل باب الخان بصدره تكية عامرة البناء مشتملة على أماكن متعددة وعلى محل للطبخ به قدران عظيمان يطبخ فيها كل يوم طعام ويوزع في طياس من نحاس للفقراء المقيمين والواردين . وفي الخان المرافق المحتاج إليها على أحكم وضع .

وأقمنا إلى أن صلينا العشاء وتناصف الليل ، وزاد عن النصف بقليل ، فرحلنا فسرنا غير بعيد فمررنا بنهر ماء [1] قطعناه عرضاً . ولم نزل بعده نصعد تلالاً ونهبط وهاداً في طريق صعب زعموا أنه بينه وبين المنزل المقصود نزوله المسمى بالزنبقي [2] خمس ساعات ، وهي وإن كانت كذلك إلا أنها لصعوبة الطريق زادت على ماطال منه . فسرنا إلى أن طلع الفجر فأديناه بالطريق ومررنا بعده في رياض مخضرة يميناً ويساراً فوصلنا المنزل المذكور فإذا هو واد فسيح مخضر الجهات به خان ينزله المسافرون عامر البناء متسع الجهات والأنحاء وبه يباع مالذ من

---

(١) أحد روافد نهر العاصي ويدعى بالنهر الأبيض .

(٢) الزنبقي قرية على الحدود السورية التركية المصطنعة قريبة من دركوش إلا أنها تقع على الضفة اليسرى لنهر العاصي ، لم نتمكن من زيارتها للتعرف على خانها بسبب وقوعها ضمن أراضي اللواء السليب .

الفواكه كالحبحب والعنب والتين وغير ذلك وأقمنا به يوم الثلاثاء إلى أن صلينا به المغرب والعشاء جمعاً ثم أخذنا ننزل خفضاً ونصعد رفعاً حتى مررنا أثناء الليل بنهر العاصي (١) أيضـاً فقطعناه خايضين له بالمركوب من الدواب ولم يكن اتخاذ السفن منها لنا قبل ذلك حساب . فلم نزل حتى طلع فجر يوم الأربعاء وصلنا إلى المنزل المأموم وهو بلدة انطاكية (٢) فوجدناها من أعجب البلاد اتساعاً فصلينا الصبح بها لأقرب محل لبابها وسورها من داخلها وجدنا به عين ماء عذبة فبادرنا الوضوء بذلك الماء وأدينا به فرض الصلاة . ثم سرنا والبساتين المخضرة يميناً ويساراً ، فلم نزل مارين بها كذلك نمر على مساجد عامرة وأسواق قائمة ليست دامرة . وبالجملة فهي بلدة كبيرة . ثم انتهينا إلى محط الرحال فإذا هو منزل مخضر البسيطة والأشجار والدور به محيطة والنهر العاصي يجوس في خلاله جارياً . فضربت الخيام بالشاطىء الذي تحت سور البلد . وقد زرنا بها العبد الصالح حبيب النجـــار ، وقبره في منخفض من الأرض ينزل إليه بدرج بعد الدخول بمنزل هناك بدرجات ست أو سبع وسراج موقود وقنديل ودخلنا أيضاً مسجدا إلى جانبه وصلينا به ما تيسر ثم سرنا إلى خارج البلدة لجهة غير الذي دخلنا منها لمحل به ناعورة عظيمة الوضع حسنة الصنع والى جانبها طاحونة ماء وبالقرب قصران مرتفعان مطلان على النهر . وبقينا بها الى أن وجب فرض العشاء فأديناه في أول وقته . ثم سرنا نطوي بعد غور الأرض أنجاداً نطويها على الجياد حتى كاد أن يبقى ثلث الليل . فاذا جبل مرتفع فلم نزل في صعود

---

(١) ليس من السهل اجتياز نهر العاصي بدون جسر كما أن المسافر باتجاه انطاكية لا يحتاج لاجتياز نهر العاصي فالطريق يتجه نحو الشمال بمحاذاة الضفة اليسرى قريباً من جسر الحديد على طريق انطاكية حلب ثم يتجه نحو الغرب فالجنوب الغربي . ولكن النهر الذي اجتـــازه الخياري وتوهم بأنه العاصي هو أحد روافده المعروف بنهر البواردة .

(٢) لم نتمكن من زيارة هذه المدينة والمدن السورية الأخرى المجاورة لها ونحيل القارىء الى ما كتبه المرحوم وصفي زكريا في كتابه جولة أثرية ص ٨٧ ـ ١١٥ طبعة دمشق ١٩٣٤ ، والى الصورة المنشورة في آخر هذا المقال .

إلى أن لمع بارق الفجر فبشرنا بالقرب من المنزل المقصود المسمى ببيلان (١) فاستبشرنا بقربه، فلم نزل في صعود وهبوط نمر في طريق في جانب الجبل عرضها الذراع تارة والذراعان غالباً وجانبها الآخر كله مهاوي. ثم لاحت أعلام القرية، فاذا هي بارزة مستطيلة بين جبلين بيوتها في سفح الجبل صاعدة لها شبه بجبل أبي قبيس بمكة. ومنزل الحجاج الواردين ضيق جداً من أضيق منزل نزلناه. وبها مسجد لطيف وأمامه خان كبير ينزله المسافرون شتاءً وكلاهما من إنشاء مولانا السلطان سليمان وأدركنا بها من الفاكهة الجبجب والتين والعنب. وأقمنا به يوم الجمعة الخامس والعشرين إلى أن كادت الشمس أن تغيب ثم سرنا فلم نزل نسير في طريق هي ميزان الصراط المستقيم تحت أشجار تظلنا ومياه صوت خريرها يدلنا، فوصلنا قرية تسمى سكندرونة وجدنا بها طرف البحر الملح الموصل للجهات كالروم وسكندرية وبلاد الكفار وإذا صوته كزئير الآساد، فسرنا والبحر معنا والأمواج تتلاطم حتى قطعنا المضيق المقدم وصفه، ولم نزل كذلك حتى دخلنا مصبحين إلى المنزل المقصود المسمى باياس (٢) بعد أن فارقنا بيلان.»

عودة الخياري إلى دمشق:

ونترك الخياري الآن بعد أن غادر الأراضي السورية يمضي في طريقه إلى القسطنطينية ويملأ الصفحات في وصف مشاهداته في الطريق اليها وفي وصف المدينة العظيمة وفي مقابلته لرجال الدولة وتحقيق مآربه والحصول على مبتغاه ثم العودة من حيث أتى ماراً بنفس المنازل فيدخل سورية من باياس ومنها إلى اسكندرون فبيلان فانطاكية فالزنبقي فالشغر فالمضيق فحماة فحمص

---

(١) تقع في ممر جبلي يصل بين المدن السورية والأناضول وتبعد عن الاسكندرون ١٥ كيلو متراً. كانت تمر منه الجيوش القادمة من الشمال إلى سورية وبالعكس وعرف هذا المكان عند المؤرخين بباب اسكندرون أو باب سورية.

(٢) تقع على ساحل البحر المتوسط شمالي الاسكندرون وتبعد عنها مسافة عشرين كيلو متراً وعندها كانت تنتهي الحدود الشمالية الغربية بين سورية وتركيا قبل الاستيلاء على أراضي لواء اسكندرون وضمها إلى تركيا.

فالحسيا فالنبك فالقطيفة دون أن يحدثنا شيئاً عن طريق عودته ويكتفي بتعداد هذه المنازل قائلاً كلها منازل تقدم شرحها ..

ويقول عن القطيفة : « وهو آخر المنازل من جهة الروم ، ورأينا بهـا أبناء الشام الواصلين للملاقاة ...

وكان وصوله إلى دمشق في العودة يوم الخميس الثاني والعشرين من جمادى الثاني من عام واحد وثمانين والف . وجاء كثير من كبراء دمشق وعظمائها يسلمون عليه . ذكر منهم نقيب الأشراف السيد محمد بن حسن بن محمد بن عجلان الحسيني وهو نفسه الذي اجتمع به في المرة الأولى وأشرنا الى ترجمته في الهامش . ورافقه هذه المرة لزيارة ضريح السيدة زينب (١) بنت الامام علي بن أبي طالب المدفونة خارج دمشق بقرية راوية كما يقول الخياري . فاذا مزار عليه قبة سامية وفي جانب من جوانبه على يسار الداخل قبر مغشا بالستاير وفي مقابله محراب . « ثم برزنا منه لزيارة العبد الصـالح مدرك الشيباني (٢) فانه بمحل يقابل ذلك المحل ويحاذيه . ثم توجهنا قاصدين زيارة سيدنا سعد بن عبادة (٣) سيد الخزرج ... مشتمل على ضريح عامر والى جانبه ايوان أمامه بحرة ماء وممن اجتمع بهم من علماء دمشق . العلامة فضل الله بن القاضي محب الدين

---

(١) قبر السيدة زينب مشهور في قرية تعرف بالست وكان اسمهـا في الماضي راوية تقع على بعد عشرة كيلو مترات إلى الجنوب من دمشق ، وهو مزار محتفى به قديماً وحديثاً من قبل طائفة الشيعة في أنحاء العالم الإسلامي ، كانت عليه قبة فخمة محلاة بالمرايا تهدمت منذ عام وقد أهدته الدولة الإيرانية مؤخراً ضريحاً ثميناً من الموزاييك الدقيق الصنع وقفصاً من الفضة . ويقصد بالست ، زينب الصغرى بنت علي بن أبي طالب الملقبة بأم كلثوم . ونشك في صحة هذه النسبة لأن زينب هذه ماتت في المدينة وليس في دمشق . (انظر مقالنا عن قبور العظماء في دمشق ـ مجلة المجمع العلمي ـ المجلد ٣٤ ـ العدد ٤) .

(٢) لعله يقصد قبر الصحابي مدرك بن زياد الفزاري وقبره اليوم معروف يزار في « حجيرا » القرية المجاورة لقرية الست .

(٣) قبره في قرية المنيحة بغوطة دمشق (انظر كتاب الزيارات بدمشق ـ محمود العدوي المتوفى ١٠٣٢ هـ) . وتسمى اليوم بالمليحة ، الى الجنوب الشرقي من دمشق .

الدمشقي (١) ، ويقول بأن له مؤلفاً ترجم به لرجال عصره ، زاره في منزله فقرأ عليه بعضاً من هذه التراجم ومنها ترجمة الوزير احمد باشا بن الوزير الكبير محمد باشا . وممن التقى بهم الخياري من العلماء ثانية الشيخ عبد الغني النابلسي الذي دعاه الى بيته وتبادل واياه نظم الشعر وكذلك مفتي الشام أحمد أفندي . كما التقى هذه المرة بالشيخ أحمد الصفدي امام جامع الدرويشية.

طريق القوافل بين دمشق والقدس :

غادر الخياري دمشق في الخامس عشر من رجب الفرد بعد اقامة دامت اربعة وعشرين يوماً متوجهاً الى القدس وكان الوقت خريفاً لأنه وصف اصفرار أوراق الأشجار ، ومر بداريا (٢) كأول مرحله بعد دمشق فزار فيها قبر أبي سليمان الداراني (٣) وأبي مسلم الخولاني (٤) وقبر حزاقيل (٥) أحد أنبياء بني اسرائيل وكانت المرحلة الثانية سعسع (٦) فوصفها بأنها « منزل مخضر

---

(١) وهو المحبي مؤلف الكتاب المشهور « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر من أربع أجزاء . توفي سنة ١١١١ للهجرة (ترجمته في سلك الدرر ــ المرادي ٨٦/٤) .

(٢) وهي من أكبر قرى الغوطة تقع على بعد ثمانية كيلو مترات الى الجنوب الغربي من دمشق . وكان يمر بها الطريق المتجه إلى فلسطين ومصر ، فهي أول مرحلة على هذا الطريق ، كما أن الكسوة أول مرحلة على طريق الحج .

(٣) أحد الأولياء ومشايخ الصوفية ، توفي عام ٢٣٥ للهجرة ، وما يزال قبره يزار في داريا وعليه مسجد . وقد أيدت أقدم المصادر التاريخية وجود قبره في داريا . (انظر الزيارات للعدوي ص ٦٥ . وتاريخ داريا للخولاني ص ٥١) .

(٤) وهو من التابعين . توفي في داريا سنة ستين للهجرة . وقبره اليوم معروف يزار (انظر الزيارات ص ٦٣ وتاريخ داريا للخولاني ص ١٠٣) .

(٥) له قبر معروف في داريا ولكننا نشك في صحة نسبته اليه .

(٦) تقع قرية سعسع على الطريق بين دمشق والقنيطرة وتبعد عن دمشق مسافة ٤٠ كيلو متراً أما خانها فما يزال باقياً وقد أصابه التهديم في زلزال عام ١١٧٣ هـ كما ذكر البديري الحلاق في كتابه حوادث دمشق اليومية . ويشاهد الخان اليوم الى جانب الطريق الذاهب إلى القنيطرة تحيط به مياه نهر الأعوج والقباض ، يسكنه أهل القرية وبداخله جامع صغير . ذكر الغزي بأن بانيه هو سنان باشا والي الشام المشهور الذي تقدم ذكره . (انظر ذيل الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة ــ مخطوطة الظاهرية ص ٢١٦) .

الأكناف به خان عامر ومسجد حسن وتكية عامرة جار لها بعض المرتب . ويتبطن المنزل نهر عذب يتلوى في غضونه فمن ثم يسمى بالأعوج وهو مشهور بطيب الماء وعذوبته حتى ينقل منه لبعض رؤساء الشام ماء » .

ثم سارت القافلة في أرض ذات أحجار كبار يصعب السير فيها وترتعش فيها الجمال ، إلى أن وصلت إلى القنيطرة (١) فقال : منزل به مسجد عامر وخان ولكننا لم ننزله كالذي قبله لنزولنا بالخيام . ثم مرت القافلة بجبل عال في أعلاه قبة مرتفعة على يمين المار يقال أنها قبر رجل من أهل البيت يقال له أبو الندا .

ويتابع الخياري وصف الطريق فيقول : « ثم سرنا في طريق سهل ساعة أو ساعتين ثم عاد لنا طريق صعب ذو منعطفات مرضوم بالحجارة الكبار المؤذنة بالوقوع لايستطيع المشي فيها إلا كل قوي من الرجال والجمال . وبه رسوم من الخراب يقال إنها منازل بني اسرائيل غادرها الدهر أثراً بعد عين . ولم نزل إلى أن وجب فرض الظهر وإذا عقبة مفروشة بالحجر المنحوت يزيد طولها على المعتاد من العقبات . ويقال إن الذي فرش ذلك الحجر بها هو رضوان بيك (٢) أمير الحاج المصري سابقاً . فلم نزل ننحط من أعاليها في هبوط إلى أن وافينا أسفلها

---

(١) وهي اليوم مدينة كبيرة ومركز محافظة القنيطرة وتقع في أسفل جبل الحرمون (الشيخ) وتبعد عن دمشق مسافة ٦٧ كيلو متراً . أما خانها فقد بناه والي الشام لالا مصطفى باشـا سنة ٩٧١ هـ وكذلك بنى مسجدها . والخان اليوم متهدم توجد منه بقية عند مبنى دار الحكومة . ولا نعرف شيئاً عن القنيطرة قبل العهد العثماني سوى أنهـا كانت محطة للقوافل في العهد المملوكي ، وان التاجر الدمشقي ابن المزلق (٧٥٤ ـ ٨٤٨ هـ) بنى فيها خاناً مع مجموعة الخانات التي أنشأها على طريق مصر كخان جسر يعقوب والمنية الواقعة شمال غربي بحيرة طبريا وعيون التجـــار المرحلة التالية على هذا الطريق . (انظر الريف السوري لوصفي زكريا ٢/٥٣٥) .

(٢) جاء في هامش الورقة ١٩٤ من المخطوط ما يلي : ليس الفارش لها رضوان وإنما الفارش لها مصطفى باشا أبو النور أولاً ثم زاده حسني باشا بن جان بلاط لما عمر الخان المعروف بخان الجسر .

فإذا نهر جار وعليه كبري (١) مستطيل بعض الطول يقال له على ألسنتهم يعقوب والد سيدنا يوسف . ويقال أن هذا النهر ينصب في بحيرة طبريا وبالقرب منه الجب اليوسفي الذي ألقي فيه سيدنا يوسف وعند هذا الجسر ينزل المسافرون . نزلنا وأقمنا إلى أن بقي ثلث الليل الأخير »(٢) .

---

(١) المراد بالنهر نهر الأردن أو نهر الشريعة ، وأما الجسر فهو جسر بنات يعقوب المقام عليه بين بحيرتي الحولة وطبريا . وكان نقطة المرور بين الحدود السورية والفلسطينية إلى أن نسف في حوادث ١٩٤٨ بين العرب واليهود ، وانقطع المرور عليه بسبب احتلال فلسطين من قبل الصهاينة .

(٢) سيتابع الخياري رحلته في الأراضي الفلسطينية ويطلق عليها (بلاد كنعان) ، فيصل إلى القدس ثم الى القاهرة ثم الى المدينة . وينتهي عند جسر بنات يعقوب الجانب الخاص بسورية . ومن شاء الاطلاع على بقية الرحلة ونص المخطوط الأصلي فليرجع الى النسخة الأصلية في مكتبة دار الكتب بالقاهرة ونسخته المصورة التي قدمتها لتحفظ في مكتبة المجمع العلمي بدمشق . بعد سحب صورة عنها ووضعها في مكتبة مديرية الآثار العامة لتسهيل الرجوع اليها على الباحثين .